إبراهيم الأنصاري البحراني

اهداء لمشاية الأربعين

1 4 4 5

بسم الله الرحمن الرحيم

ما أدراك بمر الحسين

مقدّمة المؤلّف

نلاحظ في الأحاديث الواردة في زيارة الأئمّة عليهم السلام التأكيد على عرفان حقّهم حين زيارتهم كما في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: (مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَوْمَ عَاشُورَاءَ عَارِفاً بِحَقِّهِ كَانَ كَمَنْ زَارَ اللَّهَ تَعَالَى فِي عَرْشِهِ) التهذيب ج٦ ص١٥.

والسؤال هو : هل بامكاننا معرفة حقّهم حقّ المعرفة؟

أقول في الجواب: أنّى لنا ذلك! ولكن هناك حلّ وهو:

ينبغي لنا أن نتعرّف على أهل البيت عليهم السلام بمستوى نستشعر عظمتهم في أنفسنا بحيث نصل إلى مرحلة (ما أدراك) وهذا المستوى من المعرفة أعني الاقرار بالقصور والعجز عن معرفتهم هي مرحلة عالية من معرفة حقّهم، لها دورها في التحلي بصفاتهم و السير على خطاهم وأيضا تجرنا إلى مقام التسليم و الخضوع و الذلّ لهم كما في زيارة أئمة البقيع (يا مَوالِيَّ يا أَبْناءَ رَسُولِ اللهِ ، عَبْدُكُمْ وَابْنُ أَمَتِكُمْ الذَّليلُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَالْمُضْعِفُ فِي عُلُوِّ قَدْرِكُمْ وَالْمُعْتَرِفُ بِحَقِّكُمْ جاءَكُمْ مُسْتَجِيراً بِكُمْ) وهذا هو المطلوب.

والجدير بالذكر ما في الزيارة الجامعة الكبيرة (طَاطَأَ كُلُّ شَرِيفٍ لِشَرَفِكُمْ، وَبَخَعَ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ لِطَاعَتِكُمْ، وَخَضَعَ كُلُّ جَبَّارٍ لِفَضْلِكُمْ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ).

هذا الكتاب هو ثاني كتاب حسيني بعد كتاب (إشراقات حسينيّة في الدولة المهدوية) الذي نشرناه قبل عشرين سنة . وهو يشتمل على أسرار حسينيّة مختلفة بيّناها باختصار، سميناه (**ما أدراك من الحسين**) .

وليعلم بأنّه مجرد أفكار ورؤى حسينيّة مبتكرة كتبت لعامّة المؤمنين، وأمّا الأبحاث العميقة والمفصّلة الحسينيّة فسننشرها في كتابنا (خفايا عاشوراء) إن شاء الله تعالى.

إبراهيم الأنصاري / مملكة البحرين
٩ صفر المظفر ١٤٤٥

جنّة الحسين عليه السلام

لو ننظر إلى واقعة الطفّ من منظور الآية ١١١ من سورة التوبة، نعرف السرّ في هذا الزحف العظيم من أرجاء العالم إلى كربلاء رُغم الصعوبات ، ورُغم التهديد المستمرّ من قبل زمرة بني أميّة.

إنّها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾[1]، فالتجارة مع الله بالأموال هي مقولةٌ حَسنيّة، والتجارة مع الله بالأنفس هي مقولةٌ حُسينيّة، وكلاهما اكتسبا الجنّة – ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ – بل أصبحا سيّدي شباب أهل الجنّة.

ولكن هل تظنّ أنّ هذه الجنّة تختصّ بيوم القيامة لا غير؟ أقول: كلّا، يقول سبحانه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، أي: فعلًا وفي هذه الأرض، فكربلاء هي الجنّة بعينها الّتي عوّض بها الإمام الحسين عليه السلام ببذل نفسه وأنفس أحبّته، وجميع زوّاره يتوجّهون إلى الجنّة وهم يشعرون بذلك سواء علموا تفصيلًا أو لم يعلموا، يدخلون في الجنّة ويتنعّمون بنعمها رُغم أنّها غير ظاهرة، يشربون فيها من كأسٍ كان مزاجُها كافورًا، ولكنّهم لا يشاهدونها فعلًا.

وهذا هو «الإصلاح» بعينه الّذي تحدّث عنه: «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي»[2]، فهو عليه السلام قد حقّق الإصلاح في أمّة جدّه من خلال خلق جنّةٍ للأمّة في هذه الدنيا الدنيّة.

فيا عاشق الحسين، تصوّر لو كانت الدنيا من دون الإمام الحسين عليه السلام، هل كان فيها لذّة؟ ولو لم تكن كربلاء في الأرض، فما قيمة الأرض إذن؟ ولأجل ذلك نشاهد أنّ الملائكة يحدقون بقبره، كما في الزيارة: «السلام عليكم يا ملائكة ربّي المحدقين بقبر الحسين عليه السلام»[3].

لكي ننمو ونتكامل وننطلق نحو الرشد والتعالي فنتخلّص من الكون النباتي – الّذي أشار إليه سبحانه في قوله: ﴿وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[4] – ونصبحُ إنسانًا يمشي على رجلين فنلتحق بركب الصالحين، نفتقر إلى أرضيّة خصبة يُخيّم عليها نور الله عزّ وجلّ، ويا حبذا لو كان فيها ربوة وإلى جنبها ماء معين، فهل تدلّونني على أرضٍ مشتملةٍ على هذه المميّزات غير أرض كربلاء؟!

1) التوبة: 111.
2) بحار الأنوار 44: 329.
3) مصباح المتهجّد 2: 719.
4) نوح: 17.

إن طلبت نور الله تجده هناك، فصاحبه هو مصباح الهدى، ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾٥، وهو النور في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، وهو النور الّذي لا يُطفأ ولن يطفأ أبدًا.

وإن أردت الربوة العالية، فهذا عليّ بن الحسين الأكبر والأصغر وأبو الفضل العبّاس وبنو هاشم والأصحاب حين ارتقوا إلى الأعلى.

وإن بحثت عن الربوة الظاهريّة، فعليك بالتلّ الزينبيّ الّذي رفَعَ بنت فاطمة عليها السلام إلى أعلى عليّين، فاكتسبت البصيرة ونادت بأعلى صوتها: ما رأيت إلا جميلًا.

وإن طلبت الماء المعين، فأيُّ ماء يُعادل ماء الولاية الّذي عُجنت بها طينتُك أيّها العاشق؟ ذلك الماء الطهر الطاهر المطهّر من طهر طاهر مطهّر، والّذي طهُرت به البلاد وطَهّرت به أرضَ كربلاء.

فهيّا إلى كربلاء مشيًا على الأقدام خلفَ عيسى المسيح عليه السلام وأمّه مريم؛ ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾٦، والجدير بالذكر ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير هذه الآية، قالَ: «الربوة: نجف الكوفة، والمعين: الفرات»٧، ولذلك نخاطب شهداء كربلاء: «طِبتم وطابت الأرض الّتي فيها دفنتم وفزتم فوزًا عظيمًا»٨.

فهنيئًا لزوّارك يا أبا عبد الله، فالله هو الّذي يتكفّلهم؛ ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾٩، ويتقبّلهم؛ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...﴾١٠، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ...﴾١١.

5) النور: 35.
6) المؤمنون: 50.
7) كامل الزيارات، ص47 ح5.
8) مصباح المتهجّد 2: 723.
9) الواقعة: 64.
10) آل عمران: 37.
11) الأعراف: 58.

كربلاء ساحة العشق

من الخطأ أن نصوّر كربلاء أنّها ساحة حرب خشنة، فأرض كربلاء كانت محلًّا لاستعراض العشّاق المخلصين فقط، فلا تسمع إلّا هتافات: «أنا عاشق الحسين» و «حب الحسين أجنّني»، وهذه المواقف حَريَّة بإيجاد تغيير وانقلاب داخليّ لمن يشاهد أولئك العشّاق، ولعلّها من أشدّ الأمور تأثيرًا في الإنسان؛ لأنّ الإنسان بفطرته يهوى العشق وينجذب إلى العاشق، ولكن المشكلة فيما لو قسا القلب، فلو التقى قاسي القلب بالعاشق الواله ولم يستطع مواجهة مَنطِقه الجميل، فيتمنّى هلاكَه، بل ينتظره لأن يهوي على الأرض ليقتله فيتخلّص منه.

فهؤلاء الأعداء كانوا منعدمي الشعور؛ إذ كيف لإنسان أن يرى انكسارَ عاشق ولا يتأثر لهذا المشهد بل ويجهز عليه فور سقوطه! لهذا زادت المصائب في كربلاء؛ لأنّ الدنيِّ لا يتمكّن من التسابق مع العاشق، فلا يرى في نفسه بُدًّا إلّا أن يُبعد العاشق عن الوجود كي تخلو له الساحة فيَعمَهُ في طغيانه، ولكن هيهات ذلك.

ماذا تفتقد؟

كربلاء محلّ للمفقودات، يقول سبحانه: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾[12]، أين أجد الصلاة؟ في كربلاء.

ضاع الحجاب، تجده في كربلاء.

ضاعت شخصيّة المرأة المسلمة، تجدها في كربلاء.

ضاع الطفل، تجده في كربلاء.

إذا كنت تبحث عن الشيخ الكبير، فتجده في كربلاء، وهو عابس بن شبيب الشاكري، وحبيب بن مظاهر الأسدي.

حتّى الغدير موجود هناك ...، الشفاعة، غفران الذنوب، الوفاء، الصدق، الصبر، الجمال، الفن ووو... كلّها في أرض الطفوف، حتّى لو افتقدت نفسك فاذهب إلى كربلاء لتعثر عليها.

وكذلك إذا تريد أن تعرف الخيانة والغدر وخلف الوعد والشيطنة والطمع والكذب والافتراء وكلّ أنواع الظلم، تجده هناك في جيش عمر بن سعد.

12) مريم: 59.

الإمام الحسين عليه السلام حيث كان يعلم أنّ أنواع المصائب تنزل على الشيعة مستقبلًا، فتحمّلها كلّها وقال لشيعته:

شيعتي مهما شربتم عذب ماء فاذكروني أو سمعتم بقتيل أو جريح فاندبوني

مدرارًا

أشدّ جفافًا من الأرض الّتي لم ينزل عليها مطر السماء مدرارًا، هو جفاف النفس الّتي لم ترتوِ من الدموع الجارية على مصيبة سيّد الشهداء عليه السلام قتيل العبرة، ولنعلم بأنّ جفاف العين هو نتيجة الإنّيّة والأنانيّة، الّتي يسعى إبليس اللعين على تقويتها؛ حيث يزيّن للناس أعمالهم ليروها جميلة فيعتريهم العُجب بها فلا يرون عيوبهم أبدًا فيُترائى لهم وكأنّهم لا عيب فيهم فيحرمهم من البكاء.

البكاء هو الّذي يُصلح باطن الإنسان المذنب، يستغفر ثمّ يتوب فيتطهّر من الإنّيّة والأنانيّة الّتي هي أصلُ جميع التلوّثات الباطنية، وكأنّ المطر قد نزل عليها فطهّرها، قال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا...﴾[13]، والمدرار: هو سقوط المطر متتابعًا بلا إضرار، وهذا يعني أنّه يُنزل حسَب الحال فينقطع؛ كي تشرب الأرض الماء الأوّل فتنتظر ماءً آخر، هكذا لا بدّ أن تكون الدمعة على مُصاب سيّد الشهداء عليه السلام؛ لتُثمر البركات العظيمة الّتي لا تخطُر على قلب أحد.

لِمَ لا! وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ماءُ زمزم خيرُ ماءٍ على وجه الأرض»[14]، فإن كان ماء زمزم ينبع من بيت الله الحرام – المبنيّ من الحجر الصَّمّ – فإنّ الدمعة على شهيد كربلاء عليه السلام نابعة من حقيقة بيت الله وهو المؤمن؛ قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن أفضل حقًّا من الكعبة»[15]، بل روي: «أنّ قلب المؤمن عرش الرحمن»[16].

هذا، ولا بدّ أن تعلم – أيّها الحبيب – أنّ أفضل البكاء هو النابع من الحبّ، ونتيجته هو مضاعفة الحبّ، كالرياضة الناشئة من القوّة تزيدُ في قوّة الجسد.

13) هود: 52.
14) الكافي، ج6 ص386 ح3.
15) المؤمن (للحسين بن سعيد)، ص42 ح95.
16) بحار الأنوار 55: 39.

وكما أنّ للحرارة دورًا في صعود الماء مرّة أخرى ونزوله، فكذلك حرارة القلب تكون سببًا في صعود الدمعة إلى السماء ومن ثَمّ نزولها إلى الأرض، ولذلك قال رسول اللهﷺ: «إنّ لقتل الحسين حرارةٌ في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدًا»١٧، وربّما ينتهي ماء المطر، أمّا الدمعة على شهيد الطفّ لم ولن تنتهي أبدًا.

فالجدير أن تدمع العين قبل السلام على الحسين، ورد في زيارته: «فإن خشع قلبك ودمعت عينك فهو علامة الإذن، فادخل ثمّ قل: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الّذي هداني لولايتك، وخصّني بزيارتك، وسهّل لي قصدك»، «السلام عليك يا صريع العبرة الساكبة»، «صَلِّ على الحسين المظلوم الشهيد قتيل العبرات»، وكلّنا سمعنا قول الإمام الرضاعليه السلام: «يا ابن شبيب، إن كنت باكيًا لشيء فابْكِ للحسين بن عليّ بن أبي طالبعليه السلام»١٨.

فليس هناك أسهل لخروج الدمعة من ذكر الإمام الحسينعليه السلام، فلا تبخل أيّها العزيز، وابكِ على الحسين المظلوم الشهيد الغريب العطشان صباحًا ومساء، وفّقك الله وإيّانا لذلك.

اللطم على الصدر

إنّ آدمعليه السلام بعد هبوطه من جنّته رُغم أنّه حاول التخلّص من هذه المعضلة الّتي أبعدته عن تلك الروحانيّة – وذلك بالبكاء المستمرّ والتضرّع وطلب المغفرة من ربّه طيلة ٣٠٠ سنة – إلّا أنّه لم يتخلّص من ذلك إلّا بعد أن فتح الله له طريقًا إلى كلماته: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾١٩.

فعن ابن عبّاس أنّه قال: سألت النبيّعليه السلام عن الكلمات الّتي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه؟ قال: «سأله بحقّ محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تُبتَ عليَّ، فتاب الله عليه»٢٠.

ولا شكّ أن للكلمة الأخيرة دورًا رئيسًا في تحقّق التوبة، والتلقّي لا يعني مجرّد السماع أو التلفّظ، بل هو نوع من الحلول والنفوذ والاندماج الصيرورة، الّتي تغيّر ماهيّة الشيء تمامًا.

وهاهنا أقول: إنّ الله تعالى لم يترك أولاد آدم وذنوبهم الكثيرة من دون علاج لها، بل فتح لهم بابًا للتوبة يشبه باب أبيهم بل هو هو. فمن ابتلي من أولاده بذنبٍ ما، لا بدّ وأن يطلب الغفران

17) مستدرك الوسائل، ج10 ص318 ح12084.
18) عيون أخبار الرضا، ج1 ص299 ح58.
19) البقرة: 37.
20) معاني الأخبار، ص125.

من ربّه بالبكاء والعويل، ومن ثمّ بالارتباط القلبي بالأئمّة بصورة عامّة، وبالإمام الحسين عليه السلام بصورة خاصّة.

فيا ترى ما هو الأسلوب العملي الّذي يجعلهم منسجمين قلبًا بإمامهم الشهيد؟ إنّه هو البكاء لإمامهم، الّذي يحطّ الذنوب العظام، ومن ثمّ اللطم على صدورهم وهم يصرخون «يا حسين». إنّهم بذلك يحقّقون ما حقّقه أبوهم آدم عليه السلام؛ حيث يُدخلون حُبَّ الإمام الحسين عليه السلام في قلوبهم، وبذلك تُمحى ذنوبهم.

ومن هنا أريدُ القول بأنّ اللطم على الصدر – الّذي في القلب – هو الطريق الأمثل لتحقّق التوبة، فهو شعارٌ وعِلاجٌ. وأمّا سائر الممارسات كاللطم على الرأس والضرب على الرجل وبالسلسلة على الظهر فهي مُجرّد شعارات دالّة على تقوى القلوب. وأمّا البِدَع فهي بعيدة عن هذه الساحة المقدّسة، أعاذنا الله من شرّها.

ومن المناسب هنا أن أذكر ما نقله أحد القادة، قال: وقع هجومٌ على القوات البعثيّة، ولكن لم نحقّق جميع الأهداف الّتي كنّا قد خطّطنا لها، فذهبنا إلى زيارة الإمام الخميني رحمه الله وشرحنا له المخطّط والنتائج، فقال: أنتم في ليلة الهجوم على العدوّ قرأتم مصيبة سيّد الشهداء عليه السلام وبكيتم على مصابه، ولكن لِمَ لم تلطموا على صدوركم؟ في المرّة الأخرى عليكم باللّطم على صدوركم حينما تستعدّون للهجوم على الأعداء.

استجابة الدعاء تحت قبّته

روي عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمّد عليهما السلام يقولان: «إن الله تعالى عوّض الحسين عليه السلام من قتله أن جعل الإمامة في ذرّيّته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره»[21].

يا ترى ماذا يعني أنّ الدعاء مستجابٌ عند قبر الحسين عليه السلام، فماذا عن سائر الأئمّة، أليسوا هم نور واحد؟

أقول: نعم، هم نورٌ واحدٌ، ولكن كثيرًا ما يدعو الإنسان بدعاءٍ لا مصلحة فيه لنفسه وإن كان العبد يجهل بذلك؛ ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[22]. فبطبيعة الحال لا يُستجاب الدعاء، ولكن هذه القاعدة مستثناة بخصوص الدعاء تحت قبّة

21) الأمالي (للطوسي)، ص317 ح644.
22) البقرة: 216.

سيّد الشهداء عليه السلام، فهناك تنقلب الأمور حتّى في مرحلة القضاء بحيث يتحوّل الشرّ إلى الخير، وإنّني سمعت من آيت الله العظمى السيّد عبد الأعلى السبزواري قدس سره: أنّ الاستخارة تنحصر في الصلاة ركعتين تحت قبّة الإمام الحسين عليه السلام، ثم القول مائة مرّة: أستخير الله برحمته خيرة في عافية، وحينئذ ينقلب الشرّ خيرًا، وهذا من خصوصيّات سيّد الشهداء روحي فداه.

الرشد الحسيني

قد وردت أحاديث كثيرة تؤكّد على استحباب ذكر الإمام الحسين عليه السلام والبكاء عليه، وزيارته والإطعام من أجله، وحتّى سقي الماء باسمه، وكثير من الأفعال الأخرى، وقد ذُكرت لها فضائل لا تُعَدّ ولا تُحصى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نشاهد الكثير من الأنبياء والأولياء كانوا يقصدون أرض كربلاء المقدّسة، كما أنّهم كان يعلمون بالدقّة ما سيحدث هناك، وأنّ ابن فاطمة سيُقتل عطشانًا، وقد وردت أحاديث كثيرة من الفريقين في هذا المجال.

السؤال الّذي يطرح نفسه هو: ما هو السبب الّذي جعل هؤلاء الأنبياء والأولياء يقصدون أرض كربلاء؟ ثمّ لماذا كلّ هذه الفضائل على كثرتها، بحيث وصلت إلى مستوًى تجعل الإنسان في حيرةٍ من الأمر، وربّما يختلج في ذهن البعض أنّ هذا ليس إلّا إغراق في الأمر و مبالغة في القول؟

فهل لنا أن نصدّق بها أم ماذا؟ أقول بكلّ حسم وجدّ: لا إغراق في هذه الأحاديث أبدًا لمن لديه البصيرة والنظرة الواضحة لهذه الواقعة العظيمة.

فلا بدّ وأن ننظر إلى واقعة الحسين من منظار إلهي صحيح؛ كي نَعرِف أنّ ما ذكره أهل البيت هو عين الحقيقة والصواب، وحاشا أن يبالغوا في الأمر. فلو كانت لدينا هذه البصيرة لشاهدنا الجمال الخلاب لصُنع الله لا فطور فيه ولا قُبح يعتريه أبدًا.

ينبغي أن ننظر إلى واقعة الطفّ من منظار الرشد والرفعة لا غير، الأمر الّذي يؤكّد عليه القرآن الكريم في مواطن عديدة؛ حيث أنّه هو الهدف من خلق الإنسان، ومحظوظٌ حقيقةً مَن وصل إليه كإبراهيم عليه السلام؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[23]، حينئذ تكون واقعة الطفّ الإلهيّة أجمل من كلّ جميل على الإطلاق، فلا تتأتّى لدينا تلك التساؤلات أبدًا.

وبكلّ صراحة أقول: الارتباط بالإمام الحسين عليه السلام – بأيّ نحو كان – هو أسهل طريق لرشد الإنسان ووصوله إلى السماء.

23) الأنبياء: 51.

إنّ ركب الحسين من خلال اثنين وثلاثين يومًا قد وصل إلى مستوًى من الرشد لم يصل إليه عبّاد الليل وسُيّاح النهار بحيث وردت في النصوص أنّهم وصلوا إلى أعلى عليّين، وجمال هذا الأمر قد وصل إلى مستوًى بحيث نادت العالِمة غير المعلّمة العقيلة زينب بأعلى صوتها في وجه اللعين ابن زياد: ما رأيتُ إلّا جميلًا.

هنا لا بدّ أن نوضح الموضوع ونستدلّ عليه من خلال القرآن الكريم لنعرف عظمة الواقعة، فمن تلك السور الّتي تُبيّن حقيقة هذه الواقعة هي سورة النور وبالتحديد الآيات ٣٥ و٣٦.

إنّ مرقد الإمام الحسين عليه السلام هو من أبرز مصاديق قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ ٢٤، فقد أذن الله بذلك بالأصالة، وعلى هذا الأساس كلّ من يتوجّه إلى هذه البيوت سيرتفع إلى الأعلى تبعًا لها، وهذه من خصوصيّات كربلاء؛ حيث تأخذ الإنسان إلى الارتفاعات المعنويّة حتّى توصله إلى أعلى عليّين.

وقد وردت في ذلك أحاديث، منها ما نقله الحسكاني بسنده عن أنس بن مالك، وعن بريدة، قالا: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ إلى ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾، فقام رجل فقال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: «بيوت الأنبياء». فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله، هذا البيت منها – لبيتِ عليّ وفاطمة –؟ قال صلى الله عليه وآله: «نعم، من أفضلها»٢٥.

بل قد طبّق الإمام الباقر عليه السلام «البيوت» على نفسه؛ حيث حضر قتادة مجلسَه، فقال له الإمام: «من أنت»؟ قال: أنا قتادة بن دعامة البصري. فقال أبو جعفر: «أنت فقيه أهل البصرة»؟ فقال: نعم. قال قتادة: أصلحك الله، والله لقد جلستُ بين يدي الفقهاء وقُدّام ابن عبّاس، فما اضطرب قلبي قُدّام واحد منهم ما اضطرب قُدّامك.

قال له أبو جعفر عليه السلام: «ويحك أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، فأنت ثَمّ، ونحن أولئك»، فقال له قتادة: صدقت والله – جعلني الله فداك – والله ما هي بيوت حجارة ولا طين٢٦.

ففي الحقيقة نفس أهل البيت هم مصاديق تلك البيوت، وكذلك مراقدهم المطهّرة هي أبواب لتلك البيوت.

24) النور: 36.
25) شواهد التنزيل، ج1 ص533 ح567.
26) الكافي، ج6 ص256 ح1.

هذا رغم أنّ الرشد أمر صعب للغاية بحيث يتطلّب رياضات شرعيّة مستمرّة، وأذكار وأوراد كثيرة، مضافًا إلى جهاد كبير وسعي حثيث، ولكنّ الله قد ميّز زيارة الإمام الحسين عليه السلام وجعلها أرضيّة خصبة لتحقّق الرشد والرفعة، فهو عليه السلام يتميّز في السعة والسهوله والشموليّة للوصول إلى أعلى عليّين.

والعجب العُجاب ما يحدث من خلال المشي على الأقدام إلى كربلاء وبالخصوص في الأربعين.

إنّ الإنسان إذا مشى نحو كربلاء فكلّما قرب منها ارتقى إلى الأعلى فالأعلى بحيث يحسّ، وكأنّه تجرّد من المادّة وابتعد عن الأثقال الدنيويّة القاصمة للظهر، وما أن يصل إلى تلك الأرض المقدّسة فإذا به يحسّ، وكأنّ روحَه قد حلّق إلى السماء وانطلق إلى العرش، وكأنّه زار الله في عرشه.

فالمشي نحو مضجع الإمام الحسين ليس هو إلّا الدخول في النور الإلهيّ مرورًا من الآية ٣٥ من سورة النور: ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، ووصولًا إلى البيوت المرتفعة المذكورة في الآية ٣٦: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾. فجميع ما في الآية ٣٥ هي من جنس النور أو مرتبطة مع النور بشدّة، فهي نور على نور، وهذا العروج إلى الأعلى قانون إلهيّ لا تخلّف فيه، فهو تعالى قد أذن بذلك.

هنا سؤال يطرح نفسه وهو: أنّ الكثير يذهب إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ولا يرتقي إلى الأعلى، فما سبب ذلك؟

الجواب: أنّنا لم نُراعِ مقدّمات الزيارة، وهذا الموضوع جارٍ في جميع العبادات والتكاليف.

إنّ كلمة «التكليف» نفسها تحكي عن الكلفة والصعوبة، فمثلًا نصلّي من أجل أداء التكليف لا غير، فحينئذٍ لا ننتفع بالصلاة كنورٍ نستضيء به. ولكن النظرة الإلهيّة إلى العبادات كالصلاة وسائر ملابساتها ليست كذلك، لاحظ الآيات الأولى من سورة المائدة، فعندما يتحدّث سبحانه عن المحرّمات والواجبات ثمّ عن خصوص الصلاة والوضوء والتيمّم يقول: ﴿ ...مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[27].

فالهدفُ الرئيس لهذه الأحكام الوصولُ إلى الطهارة، ومن ثمّ إتمام النعمة على الناس.

27) العائدة: 6.

العبد الآبق

«إلهي، ألبَستني الخطايا ثوبَ مذلّتي، وجلّلني التباعد منك لباس مسكنتي، وأمات قلبي عظيم جنايتي»[28]، وهل هناك ذنب أعظم من الوقوف في وجه سيّد شباب أهل الجنّة؟ فالقلب قد مات تمامًا؛ ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...﴾[29]، «فأحْيه بتوبةٍ منك». اللهمّ اغفر ذنوبي، «فَوَعِزَّتِك ما أجِدُ لِذُنُوبي سواكَ غافرًا ... فوا أسفا من خجلتي وافتضاحي»، قد أرعبت أطفال الحسين وبنات رسول اللهﷺ، فيا لها من جريمة!

«إلهي إن كان الندَم على الذنب توبة فإنّي وعِزّتك من النادمين»، أنا نادم مخطئ آسف، إلهي العفو، إلهي العفو.

ابتعد عن الجيش ومزّع جسمه ووجهه بالتراب، ولم لا؟ وهذا هو الإمام الحسينx فلذة كبد أبي تراب، فلا ضير أن أكون ترابيًا.

خلعَ نعليه وجعلها معلّقة في عنقه، ولم لا؟ والله يخاطب موسى ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[30]، فما بال الحُرّ لا يخلع نعليه؟ هذا هو قمّة الحياء والأدب.

جاء نحو الإمامؑ نادمًا، «هل يرجع العبد الآبق إلّا إلى مولاه»؟ مجرّد ما رأى الإمامؑ جعل يبكي بكاءً شديدًا وهو يسأل إمامه: هل لي من توبة؟

فقال له الإمام الحسينؑ: «ارفع رأسَك»، فمن التجأ إلى بيتنا – بيتِ النبوّة والرسالة – فهو مرفوع الرأس.

فكلّ من يرى في نفسه العزّة والرفعة، له أن يرفع صوته: يا حسين.

فاستاذَن، ولكن كربلاء بدأت بزينب، وهي الّتي تمثّل أمّها فاطمة، بل هي حلقة وصل بين الأمّ وبين الناس، فهل هناك أمرٌ ذو بال يختتم بخير من دون أن تشرف عليه قرّة عين الرسول فاطمة الزهراءؑ؟ فلا بدّ إذَن أن يقصد زينب ويستاذن منها، فتوجّه نحو الخيام، آه يا حرّ، كم أنت مؤدّب، أفديك يا نموذج الحياء، بنو هاشم كلّهم أحياء وأنت تريد القتال!

ليتك كنت حيًّا في تلك الساعة الّتي كان أطفال الحسين يفرّون من خيمة إلى خيمة، ليس هناك من محام ومعين، وبنو هاشم جميعًا مضرّجين كالأضاحي، وعمر بن سعد ينادي: من ينتدب للحسينؑ ويُوطئه فرسه؟ فانتدب عشرة فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره.

28) بحار الأنوار، ج91 ص142.
29) الأنعام: 122.
30) طه: 12.

ثم نادى اللعين: أحرقوا خيام الظالمين!! فأضرمت النيران في الخيام... فجاءت الحوراء زينب إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وهي تقول: يا بقيّة الماضين، وثمال الباقين، أضرموا النار في مضاربنا. قال: عمّة، عليكن بالفرار، ففررن بنات رسول الله صائحات باكيات نادبات... وا إماماه.

الارتقاء بالطهارة:

ينبغي للإنسان أن يتطهّر كي يتمكّن من التنعّم بالنعم التامّة؛ حيث أنّ التطهير من الأرجاس والأوساخ يخفّف الروح فيرتفع إلى الأعلى، فإذن جميع تعاليم الدين إنّما شُرِّعت من أجل تخفيف الروح ليرتفع إلى الأعلى فيستفيد من النعم الإلهيّة هناك.

وعليه نقول بأنّه سبحانه يريد أن يُتمّ نِعَمَه على الإنسان في هذه الدنيا، فيشرّع له الأحكام الّتي تُطهّره ليحلّق في السماء ولا علاقة للموضوع بالآخرة أبدًا.

فالأنبياء والرسل كانوا يواظبون كثيرًا على الدينيّات حتّى يتطهّروا فيُحلّقوا في السماء، ومن ثمّ كان يأتي جبرئيل ويهديهم إلى كربلاء ليتنعّموا، وربّما كان جبرئيل يصاحبهم في السفر إلى أرض الطفّ، ونشاهد أنّه عليه السلام كان يذكّرهم بمصاب سيّد الشهداء عليه السلام.

فمشكلتنا نحن هي أنّنا نؤدّي الواجبات ونجتنب عن المحرمات لغرض رفع التكليف لا غير، لا لغرض التطهير من الأرجاس، ولذلك عندما ندخل في حريم أهل البيت ونَزورُهم نكتسبُ الزيارة الصرفة، ولا حظّ لنا من النعم التامّة.

فالمتديّن حقيقةً: هو الّذي يؤدّي التكاليف ليتطهّر ويكتسب النعم الإلهيّة التامّة.

طبقًا للآية المباركة في سورة الأعراف، وهي: ﴿...وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾[31]، الأغلال هي حصيلة الأعمال الّتي تحدّد الإنسان وتقيّده، ولذلك نحن جميعًا مَدينون للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

إنّ الله سبحانه يزيل تلك «الأغلال» من خلال وسائل، وهي:

1- دعاء الرسول صلى الله عليه وآله واستغفاره للمؤمنين.

2- العمل طبقًا لسنّته صلى الله عليه وآله.

3- الذهاب إلى حَرَمه وحرم الأئمّة، وهي نعمة جسيمة شاملة لا تُحدَّد بالزمان، بل تشمل كافّة الأزمنة.

31) الأعراف: 157.

الأنبياءˆ لم تكن لهم وسيلة للعروج والرفعة واكتساب النعم سوى العمل بالدينيّات كالصلاة والصوم، ولكن مع ذلك كانوا يتوجّهون نحو نعمةٍ أصيلةٍ ليتنعّموا بها، ألا وهي كربلاء، فحسَب الأحاديث الكثيرة كانوا ينطلقون إلى كربلاء والحسينعليه السلام لم يولد بعدُ.

وأمّا عامّة الناس فلم تكن لديهم هذه الوسيلة السهلة للرشد والرفعة فكم كانوا يعانون، أمّا نحن أمّة رسول اللهصلى الله عليه وآله فجُعِلَت لنا هذه البيوت لندخل فيها ونتنوّر بالنور المعنوي بعد أن نكسر كافّة القيود المادّيّة وغيرها، فنرتقي إلى السماوات العليا بل إلى أعلى عليّين. فلا يُمكن تقييم هذه النعمة العظيمة أبدًا! وهذا هو السرّ في الدعاء في السجدة بعد زيارة عاشوراء: «اللّهمّ لك الحمد حمد الشاكرين على مصابهم، إلخ».

وهذا الأمر شامل لجميع أهل البيتˆ إلّا أنّ مصباح الإمام الحسينعليه السلام أشدّ نورًا، وسفينته أوسع نطاقًا.

من هذا المنطلق نعرف السرّ في هذا القدر من الثواب لخصوص زيارتهعليه السلام والمشي على الأقدام قاصدًا حرمه وحتّى الارتباط القلبي به والتوجّه إليه، ونعرف السبب لاهتمام الأنبياء والرسل بالإمام الحسينعليه السلام وبأرض كربلاء وتحمّل عناء السفر إلى تلك الأرض المقدّسة.

الرسلˆ هم أبرز مصداقِ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾٣٢؛ حيث استبقوا سائر الناس في التوجّه إلى زيارة أرض كربلاء، ولم تمنعهم الحجب من الوصول إلى تلك النعمة الإلهيّة، بل كانوا أصحاب عزم واهتمام للوصول إلى هذا الكنز الإلهيّ المتواجد في أرض الطفّ ... طوبى لهم.

نشكر الله على ما يسّر لنا هذا الطريق ببركة رحمة للعالمين، وسهّل لنا الوصول إلى الرشد.

نطلب من الله أن يمنحنا ما منح الرسل وينعّمنا ما تنعّم به الأنبياء، ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾٣٣.

في الأربعين قد أذن الله للجميع من دون استثناء – سواء الملتزمين بالشريعة أو غيرهم – أن ينطلقوا نحو كربلاء فيتطهّروا ويرتفعوا من خلال البيوت السامية ليصلوا إلى رشدهم.

والدليل على ذلك هو ما يحسّ به زوّار الإمامعليه السلام، فلسان الحال لجميعهم هو: أنّ أجسامنا على الأرض، وأرواحنا في السماوات العلى.

والكل يتسائل عن ذلك ويقول في نفسه: ما هو هذا الإحساس الجميل الروحاني؟ والجواب هو: نتيجه التوجّه نحو الإمام الحسينعليه السلام وزيارة حرمه المطهّر؛ حيث يمسكعليه السلام بيد الكلّ فيرفعهم إلى الأعلى.

32) الواقعة: 10.

33) آل عمران: 194.

فنطلب من الله تعالى ونقول:

إلهنا وسيّدنا، نحن المقصّرون في العمل بالشريعة، ونحن المعترفون بالتهاون والتكاسل تجاه التكاليف، إلهنا جعلت حرم الإمام الحسين عليه السلام لنجاة المقصّرين المذنبين ونحن منهم، فخلّصنا من الذنوب القاصمة للظهر، وارفعنا إلى سماواتك معتصمين بحبلٍ من الناس وهو شهيد كربلاء، وخلّصنا به من جميع الآفات سالمين غانمين يا ربّ العالمين.

كد كيدك

يا لها من كلمة ربّانيّة نابعة من نفس صافية نورانيّة وقلب مطمئنّ بذكر الله، انتشر صداها في محيط مليء بالظلم والطغيان والشرك، تلك الكلمة الّتي نطقت بها عقيلة بني هاشم؛ حيث صرخت في وجه الطاغية يزيد بن معاوية، وخطبت تلك الخطبة الغرّاء، ثمّ خاطبته: «كِد كَيدك، واسعَ سَعيك، وناصِب جُهدَك، فوالله لا تمحو ذِكرَنا، ولا تُميت وَحيَنا، ولا تُدرك أمدَنا، ولا ترحَض عنك عارها، وهل رأيُك إلّا فَنَد، وأيّامُك إلّا عدد، وجَمعُك إلّا بَدَد، يومَ يُنادي المُنادي: ألا لعنة الله على الظالمين»[34].

هذا الكلام لا يصدر إلّا ممّن ينظر بعين الله، ويرى الجمال في صُنع الله.

زينب – العالمة غير المُعلَّمة – كانت ترى فشل هؤلاء الطغاة على مرّ الدهور، فمن هذا المنطق صرخت في وجه يزيد: «مَهلًا مَهلًا، لا تَطِشْ جهلاً»[35]، فهي كانت تعرف باطن القرآن الكريم وتلاحظ الأسرار الكامنة فيه، وكانت تقصد في كلامها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[36].

فقد روي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، قال: «كادوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله، وكادوا عليًا عليه السلام وكادوا فاطمة عليها السلام، فقال الله: يا محمّد، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ يا محمّد ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾، لوقت بعث القائم، فينتقم لي من الجبّارين والطواغيت من قريش وبني أميّة وسائر الناس»[37].

هذا هو نفس منطق أخيها الإمام الحسين عليه السلام حيث قال: «مثلي لا يبايع بمثله، ولكن نصبح

34) اللهوف، ص185.
35) الاحتجاج، ج2 ص308.
36) الطارق: 15 - 17.
37) تفسير القمّي، ج2 ص416.

وتُصبحون، وننظُر وتنظرون أيُّنا أحقّ بالخلافة والبيعة»٣٨؛ إذ يشير عليه السلام إلى ما سيحدث في المستقبل، وبالتحديد في الرجعة.

وأمّا قولها عليها السلام: «يوم يُنادي المنادي: ألا لعنةُ الله على الظالمين»، تريدُ أن تقول بأنّ بني أميّة هم الملعونون، وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، قال: «أولادُ قَتَلة الحسين عليه السلام»٣٩، وكذلك قال عليه السلام: «لا يعتدي الله على أحد إلا على نسل قَتَلة الحسين عليه السلام»٤٠.

جمال الشهادة

عقيلةُ بني هاشم لاحَظَت كيفيّة قتل أخيها وأولاده وأصحابه بيد أدنى الناس وأفسقهم – أعني: يزيد وأتباعه –، ومن ناحية أخرى هي العارفة المُفسّرة للقرآن الكريم، فعرفت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾٤١.

وهي برؤيتها الثاقبة وبعينها الملكوتيّة وبصيرتها في العوالم الأخرى، رأت الرزق الحسن والمائدة العظيمة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾٤٢، فيا ترى هل كان يُتوقَّع منها أن تنطق بكلمة أخرى غير كلمتها التي انتشر دوِيُّها في السماوات؛ حيث قالت: «ما رأيت إلّا جميلا»، فهل هناك جمالٌ أعظم من الشهادة في سبيل الله جلّ جلاله والوصول إلى لقائه؟!

ومن هنا نُشاهد أنّ أبا الأحرار أكّد على ذلك أكثر من مرّة وفي مواطنَ شتّى.

ففي خطبته في مكّة المكرّمة، قال بعد الحمد والثناء: «خُطَّ الْمَوْتُ عَلَى وُلْدِ آدَمَ مَخَطَّ الْقِلَادَةِ عَلَى جِيدِ الْفَتَاةِ، وَمَا أَوْلَهَنِي إِلَى أَسْلَافِي اشْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ»٤٣، انظر إلى جمال التعبير ولطافة البيان مضافًا إلى الشهادة في جمالها، نفس لقاء الأسلاف – وهم رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة وأخيه الحسن عليهم السلام – هو أمرٌ عظيم لسيّد الشهداء، فزينب عليها السلام هذه السيّدة الجليلة الّتي تربّت في هذه الحجور الطيّبة كيف لا تقول: «ما رأيت إلّا جميلا».

38) اللهوف، ص23.
39) كامل الزيارات، ص64 ح6.
40) تفسير العيّاشي، ج1 ص87 ح216.
41) آل عمران: 169 - 170.
42) القمر: 55.
43) اللهوف، ص60 - 61.

الثوب الممزّق

من معتقداتنا أنّ في ليلة القدر تُعرض جميعُ مقدّرات البشر إلى الإمام الحيّ، وهو في عصرنا الإمامُ المهدي – عجّل الله فرجه –، وذلك لأنّ للإمام شؤوناتٍ كثيرةً، منها نزول الفيوضات الربّانيّة من خلاله، فهو مجرى فيض الله تعالى، ولهذا سمّي: «أبو القاسم»؛ حيث أنّه هو الّذي يُقسِّم الأرزاق، وقد ورد في الحديث: «بيُمنه رُزِقَ الورى»[44]. وحيث أنّه مظهر الرحمة الواسعة الإلهيّة فتشمل رحمته جميع الناس سواء المؤمنين أو غيرهم، غاية الأمر تصل الفيوضات إلى المؤمنين انطلاقا من صفة الرحيميّة، وإلى الكفّار والفَسَقة انطلاقًا من صفة الرحمانيّة.

ففي دعاء الجوشن الكبير: «يا من رِزقُه عمومٌ للطائعين والعاصين»[45]، وفي دعاء شهر رجب: «يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنّنًا منه ورحمة»[46]، ومن هذا المنطلق نعرف سرّ الحديث: «لو خلت الأرض طرفة عين من حجّةٍ لساخت بأهلها»[47].

هذا، ومن الجدير ذكره هو إنّ الإمام الحسين عليه السلام كان هو إمام زمانه في سنة ستّين للهجرة، وقد قسّم أرزاق الخلق جميعًا حتّى رِزق شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد وثلاثين ألف جنديّ من جنود العدوّ الزاحفين إلى كربلاء لقتله عليه السلام.

ولكن لاحظ أيّها العزيز، أنّهم بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام – الّذي هو وليّ النعمة وبمنزلة أبيهم – هجموا عليه ليسلبوا خاتمه ودرعه وملابسه كي تكون رزقًا لهم، يبيعوها ويطعموا عيالَهم!!

حاول الإمام أن يمنع وقوع هذا، فجاء إلى الخيام قبل أن يبرز إلى القتال، وطلب من أخته زينب أن تأتيه بثوب عتيق خَلِق لا يرغب فيه أحد! وخَرَقه وجعله تحت ثيابه ودعا ببراويل حبره ففرزها ولبسها.

وحيث أنّه لا يصدر من الإمام فعلٌ إلّا و ورائه غرض وحكمة، فقالت له زينب: لماذا مزقت قميصك؟ فأجاب عليه السلام: لكي لا يرغب فيه أحد؛ فإنّي مقتول مسلوب، فارتفعت أصوات النساء بالبكاء.

والعجب أنّه عليه السلام لبس فوقه لباس جميل كما ورد: «جبّة خزّ دكناء وعمامة موردّة أرخى لها ذوابتين والتحف ببُردة رسول الله صلى الله عليه وآله» فسألته زينب عن ذلك، فقال:

44) مشارق أنوار اليقين، ص157.
45) البلد الأمين، ص409.
46) الإقبال بالأعمال الحسنة، ج3 ص211.
47) عيون أخبار الرضا، ج1 ص272 ح4.

«كي لا يرجع الرجل خائبًا من دون أن يحصل على شيء»!!!

سلام الله عليك أيّها المظلوم يا أبا عبد الله.

عزيزي: اعرِف إمامك وادْعُ لتعجيل ظهوره.

أجمل لوحة

كربلاء أجمل لوحة في الأكوان، إنّها لوحة فنّيّة رُسمت بإرادة ربّ العالمين، وبيد سيّد الكائنات ، القمّة في المعرفة والعشق، والذروة في الكمال والقرب، أعني أبا الأحرار سبط رسول الله ﷺ، ومعه الخُلّص من عباد الله، الّذين هم ما زالوا رمز التضحية والإيثار والشوق والعشق، أعني أولاده وأصحابه الكرام، فقد عبّر عنهم أمير المؤمنين عليه السلام أيّام معركة صفّين حينما مرّ بأرض كربلاء واغرورقت عيناه بالدموع وقال: «... مصارعُ عُشّاقٍ، شهداءَ لا يسبقهم من كان قبلهم، ولا يلحقهم مَن بعدهم»[48].

هي لوحة عظيمة في سِعَتها ذات أصول سابقة وفروع لاحقة؛ لأنّها تتعلّق بمن ورد في حقّهم: «أشهدُ أنّ هذا سابق لَكم فيما مضى، وجارٍ لكم فيما بقي»، بل إنّ لراسِمَها يدٌ نافذة في أقطار السماوات السبع والعرش العظيم وأعماق الأرضين، ومن هنا صار «كلّ يوم عاشوراء، وكلّ أرض كربلاء». وبما أنّ كربلاء تمثّل لوحة فنّيّة شاملة لكافّة الأزمنة والأمكنة، فجمالُها لا يتحدّد بزمن خاصّ، وهذا ما يستشعره كلّ من لديه أدنى مرتبة من الإنسانيّة ناهيك عن العُشّاق، فكلّ عشقهم يتوجّه نحو الجوانب الصعبة والنقاط السوداء في الواقعة وهي كثيرة، ولكنّهم لا يعشقونها بنحو مستقل، كما أنّ الإنسان الّذي يحبّ العين ويَمتَدحُ فيها لا يُحبُّها منفصلة عن الوجه بل يكرهها حينئذٍ يعشق سوادها وهي جزء من الجسد؛ لأنّ هذا السواد هو الّذي يُبرز بياض الوجه، كما أشار إلى ذلك العارف الربّاني الإمام الخميني رحمه الله في قصيدته المعروفة: «خال لب».

فنحن الأذلّاء والأسرى في هذه الأرض، ما عسانا أن نرى بأعيننا العمياء ونسمع بأذننا الصمّاء، لا نرى إلّا ظاهرًا من الحياة الدنيا، فبطبيعة الحال قد اختفت علينا جميع معالم كربلاء إلّا صورة بسيطة منها، ولعلّها هي الجانب المأساوي فقط، فأين نحن من الجوانب الغيبيّة لواقعة الطفّ؟ تلك المرتبطة بالسماوات السبع وبالعرش العظيم، وأين نحن من آثار عاشوراء المستقبليّة؟

48) بحار الأنوار، ج41 ص295 ح18.

وأمّا بنت فاطمة الزهراء عليها السلام وأخت الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فبمجرّد أن مسح الإمام على صدرها قد انكشف لها عوالم الغيب فرأت ما لم نراه نحن، رأت التنسيق الجميل بين أبعاد الحادثة من حيث الظاهر والمعنى، ورأت ارتباط الحادثة بالهدف الأسمى لخلق الإنسان، ومن ثمّ هوّنت عليها تلك المصائب رغم عظمتها، وسَهُلت عليها تلك المآسي رغم شدّة بأسها، فنادت بأعلى صوتها: «ما رأيت إلّا جميلا.

زينب الواسطة بين الحسين والمهدي عجل الله فرجه

معرفة سرّ زينب الكبرى تتطلّب رؤية ثاقبة، وروحًا صافيًا، ونفسًا زكيّة بعيدةً عن شوائب الدنيا، هناك ثلاثة مراحل متتالية لا بدّ من الإمعان في النظر إليها والدّقة في استيعابها، وهي:

«الفداء الحسيني المعزّز بالانطلاق الزينبي نحو دولة المهدي»؛ فإنّ الإمام الحسين عليه السلام قد رسم لنا خُطىً، بدءًا من هبوط آدم، ومرورًا بجميع الأنبياء والأولياء، وانتهاءً بآخر الزمان، الّذي تتحقّق فيه شتّى أنواع الظلم من قتل وتشريد وأسر ونهب وطغيان.

فلبقاء الأمّة حيّة غير ميّتة لا بدّ من جريان الرؤية الحسينيّة في عروقها، كجريان الدم في عروق الإنسان الحيّ، وإلّا سَيَئول مصيرُها إلى الموت والفناء.

هذه الحياة تتوقّف عند آخر الزمان، أعني: أفول الشمس يوم عاشوراء؛ حيث القتلى مضرّجون بدمائهم وهم في نومتهم المقدّسة، ورحل سيّد الشهداء منهوب، وأطفاله هاربون في الفيافي خوفًا، وخيامه مشتعلة بنار الحسَد والحقد.

دور عقيلة الهاشميّين هو استمرارٌ لدور أبيها أمير المؤمنين عليه السلام بعد استشهاد سيّدة نساء العالمين، كما أنّ إراقة دم الإمام الحسين عليه السلام هو انعكاس لإراقة دم أمّه الزهراء وابنها محسن عليه السلام، فهي زينب بنت عليّ، وهو الحسين ابن فاطمة، فصبرها صبره، ونطقها نطقه، وشجاعتها شجاعته، فهي زين أبيها حقًّا، كما جاء في الأمالي للشيخ المفيد، عن حَذْلَم بن سَتير، قال: رأيت زينب بنت عليّ عليها السلام ولم أرَ خَفِرَةً [أي امرأة مستحية] قَطُّ أنطَق منها، كأنّما تُفرِغ عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام [49].

والعجب العجاب هو صبرها، وقد روي عن عليّ بن الحسين عليه السلام: «إنّه لمّا أصابنا بالطفّ ما أصابنا وقتل أبي وقتل من كان معه – من ولده وإخوته وسائر أهله – وحملت حرمه ونساؤه على الأقتاب يراد بنا الكوفة، فجعلت أنظر إليهم صرعى ولم يواروا، فعَظُم ذلك في صدري واشتدّ لما

49) الأمالي، ص321 ح8.

أرى منهم قلقي، فكادت نفسي تخرج وتبيّنت ذلك منّي عمّتي زينب الكبرى بنت عليّ عليه السلام، فقالت: ما لي أراك تجود بنفسك يا بقيّة جدّي وأبي وإخوتي؟...»[50].

والآن هل لنا أن نجرّد أنفسنا فنرى، لا بأعيننا العمشاء بل ببصيرتنا النوراء، نرى تلك الخطوط الثلاثة المتسلسلة: الخطّ الحسيني الأحمر، والخطّ الزينبيّ الأصفر الساطع، والخط المهدويّ الأخضر.

الشهداء قد أنهوا مهمّتهم الحسينيّة الخطيرة، وعرجت روحهم إلى ربّهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ونحن إن أردنا أن لا تُدرَج أسماؤنا في قائمة اليزيديّين فعلينا أن نتعرّف على بنت أمير المؤمنين فنتّخذها أسوة في مسيرتنا المهدويّة، لا نتأخر عنها ولا نتقدّم، وبذلك ستُدرج أسماؤنا في قائمة أصحاب الإمام المهدي – روحي فداه – إن شاء الله.

تجلّي أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة

تجلّى أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة؛ لقد جاء أمير المؤمنين عليه السلام مرّة أخرى في عاصمة دولته، ولكن هذه المرّة في صورة العقيلة المجلّلة زينب عليها السلام، كلّ من كان في الكوفة – ممّن عاصروا أمير المؤمنين عليه السلام – عندما سمعوها تخطب انتقلت في أذهانهم ذكريات أبيها، وعندما لاحظوا صلابة موقفها عاشوا مواقف أبيها، ها هو عليّ بن أبي طالب يجيب على أمير الكوفة عبد الله بن زياد – عليه لعائن الله – حينما خاطب زينب بنت عليّ عليها السلام وهي مُتنكّرة، قال اللعين: الحمد لله الّذي فَضَحَكم وأكذب أُحدوثتكم.

فلم تُمهله زينب، بل مباشرة ردّت عليه: إنّما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرُنا.

هنا سألها سؤالاً آخر، فقال: كيف رأيتِ صُنْع الله بأخيك وأهل بيتك؟

فأجابت ما رأيت إلّا جميلًا. ثمّ استدلّت – سلام الله عليها – على أنّ كلّ ما رأت كان جميلًا بأمرين:

الأوّل: إنّهم استشهدوا في سبيل الله؛ «هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وأنّه سوف ينتقم الله ممّن ظلمهم وقتلهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتُحاجُّ وتُخاصَم، فانظر لِمَن الفَلْجُ يومئذ»، كلّ ذلك صدر منها بشدّة وحزم، وفي آخر المطاف هجمت على الطاغية بقولها: «ثكلتْك أمّك يا ابن مرجانه».

50) كامل الزيارات، ص261.

الثاني: إنّها تُخاطب زينبعليها السلام ابن أخيها الإمام زين العابدينعليه السلام عن مستقبل كربلاء، فتقول: «لقد أخذ الله ميثاق أُناس من هذه الأمّة لا تعرفهم فراعنة هذه الأمّة وهم معروفون في أهل السماوات أنّهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرّقة فيُوارونها وهذه الجسوم المضرَّجة، وينصبون لهذا الطفّ عَلَمًا لقبر أبيك سيّد الشهداء لا يدرس أثره و لا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيّام، وليجتهدنّ أئمّة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه، فلا يزداد أثرُه إلّا ظُهورًا وأمره إلّا عُلُوًّا»[51].

فمن الطبيعيّ أنّها تصرّح بقلب مطمئنّ وبصوت شجيّ وبيان لا غبار عليه، وتقول: «ما رأيت إلّا جميلًا».

نظام العشق

كم سعى المسلمون أن يُوجّهوا الأمم إلى الإسلام من خلال الدعوة باللسان، وحيث لم يكن الإمامعليه السلام هو محور أقوالهم وأعمالهم فلم يحقّقوا نجاحًا كبيرًا، بل قد انحرفت أكثر الثوراة وانقلبت إلى ضدّها، ولكنّ الله سبحانه قد تصرّف في الأمر بنفسه، ووجّه الأمّة من خلال «لسان الاستعراض» إلى مدرسة أخرى مبتنية على محوريّة «الحقّ معكم وفيكم ومنكم وإليكم»، ومحوريّة «وإياب الخلق إليكم»[52]، أي: «محوريّة الإمام المعصوم المتجسّد في سيّد الشهداءعليه السلام»، ألا وهو: «نظام الأربعين».

في هذا النظام يكون كلُّ شيء بلا استثناء للإمام لا غير، وينطلق هذا النظام من الحبّ والعشق لا غير، وأعني من «لا غير»: لا الحماس ولا الحزن ولا العزاء ولا الانتقام رغم أهميّتها جميعاً، فما أجمل نظام الأربعين.

نشاهد أنّ جميع من هو في هذه الساحة قد حصر في قلبه جميع القيم وبلورها، وقلّصها في مقولة واحدة، ألا وهي «حبّ الإمام الحسينعليه السلام»، وهو النظام بنفسه الّذي تبنّاه الصحابي الجليل عابس بن شبيب الشاكري؛ عندما نادى عمرُ بن سعد: ويلكم ارضخوه بالحجارة، فرُمي بالحجارة من كلّ جانب، فلمّا رأى ذلك ألقى دِرعه، ثم شدّ على الناس، فقيل له: أجننتَ يا عابس؟ فقال: أجل، حبُّ الحسين أجنّني.

51) كامل الزيارات، ص262.

52) من لا يحضره الفقيه، ج2 ص612.

وطبيعة العشق هي الجذب نحو المعشوق الّذي بطبيعته يدعو العاشق أن يتخلّى عن كلّ ما سوى المعشوق أو لا يتوجّه إليه بشدّة وحدّة، فالعزاء والانتقام واللعن رغم شدّتها في عاشوراء يخفّ لونها في الأربعين، ولذلك لم يشأ سبحانه أن يجعل هذا النظام في عاشوراء؛ لأنّ الأربعين من أجل استعراض المدينة الفاضلة الّتي طالما كتب عنها الحكماء والفلاسفة، ولم ترَ النور أبدًا، بل بقيت سَجينة الكتب.

الأربعون تعلّمك أنّه مهما طال المسير للوصول إلى الإمام إلّا أنّهُ يبقى العزم ثابتًا والرؤية واضحةً والسعي حثيثًا، بل يشتدّ ذلك العزم أضعافًا مضاعفة لا يشوبه كلل وملل، فهنيئًا لكم عشّاق قتيل العبرات عليه السلام، وهنيئًا لزوّاره المُشاة الّذين أصبحوا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[53].

عاشوراء بعين الله جلّ جلاله

عاشوراء بعين الله جلّ جلاله؛ «هوّن عليَّ ما نزل بي أنّه بعين الله»[54]، قالها الإمام الحسين عليه السلام بعد مقتل ولده عبد الله الرضيع، وبذلك المصائب لا تهوّن عليه فحسب، بل تنقلب إلى حوادث يشتاق إليها الإنسان؛ حيث أنّه من خلالها يزداد القرب إلى المعشوق.

لتوضيح هذا الأمر نتوسّل بمثال: نشاهد الولد وهو يتلو القرآن بصوت شجيّ، ولكن سرعان ما تتحوّل إلى تلك القراءة الشجيّة المبدعة والصوت الجميل المبهر، ماذا حدث؟ نلاحظ في المجلس نفسه الأب جالسٌ وهو ينظر إلى طفله الصغير كيف يتلو، ففي المرّة الأولى لم يكن الطفل يعلم بوجود أبيه، ولكن بمجرّد أن علم ذلك وأنّه ينظر إليه تغيّر كلّ شيء.

من هنا نعرف السرّ في قولنا حين الوقوف في الصلاة بعد الركوع: «سمِع الله لمن حمده»، وما قيمة العبد حتّى ينظر إليه ويستمع إلى كلامه الربُّ، بل يكون ربّه خير جليس وأنيس له: «يا أنيس من لا أنيس له»[55]، بل أكثر من ذلك يعشقه، وقد ورد في الحديث القدسي: «من طلبني وجدني، ومن وجدني عرفني، ومن عرفني أحبّني، ومن أحبّني عشقني، ومن عشقني

53) البقرة: 147 – 148.
54) اللهوف، ص117.
55) البلد الأمين، ص404.

عشقته، ومن عشقته قتلته، فمن قتلته فعليَّ ديته، فمن عليَّ ديته فأنا ديته»[56]، وحينئذٍ يصل العبد إلى مستوى من العبوديّة بحيث تتمنّى الحورُ معانقتَه وهو لا ينظر إليها، بل يكون كلّ أمله أن يصل إلى جنّة لقاء الله حيث نقل عن سيّد الشهداء عليه السلام: «تركت الخلق طرًّا في هواك، وأيتمت العيال لكي أراك».

فعقلية بني هاشم – سلام الله عليها – شاهدت هذه المواقف وعاشته من يوم خروجها من المدينة إلى حين وصولها إلى كربلاء خصوصًا في يوم عاشوراء، ولذلك نادت: «ما رأيت إلّا جميلًا».

تلوُّن العاشق بلون المعشوق

هذه هي الغاية من الخلق وتحصل من خلال العبوديّة الّتي هي المعرفة، وهي التخلّق بأخلاق المعشوق والتأثّر به، ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[57]، ولا يمكن أن تتحقّق هذه الغاية إلّا من خلال الانسجام والاحتساب والموافقة – أعني موافقة المحبّ للمحبوب – ومن خلالها يحصل الذوبان بينهما بحيث تكون أنفسهم في النفوس.

أما ترى أنّ إبراهيم عليه السلام عندما ذهب إلى كربلاء وهو راكب فرسه فعثر به وسقط وشُجَّ رأسه وسال دمه، نزل عليه جبرئيل وقال: يا إبراهيم، هنا يُقتَل سبط خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء، فسال دمك موافقه لدمه[58].

وكذلك زكريّا عندما علم بأنّ الإمام الحسين عليه السلام سيقتل، كان يقول: اللّهمّ ارزقني ولدًا تقرّ به عيني على الكبر، واجعله وارثًا وصيًّا، واجعل محلّه منّي محلّ الحسين، فإذا رزقتنيه فافتنّي بحبّه، ثمّ فجّعني به كما تفجّع محمّدًا حبيبك بولده[59].

والجدير بالذكر ما ورد في شأن أبي الفضل العبّاس عليه السلام في يوم عاشوراء؛ حيث خاطب أخاه عبدالله بن عليّ: تقدّم يا أخي حتّى أراك قتيلًا وأحتسبك؛ فإنّه لا ولد لك.

وهكذا بالنسبة إلى شَوذَب مولى عابس، قال له: يا شَوذَب، ما في نفسك أن تصنع؟ أجابه شوذب: أُقاتِل معك حتّى أُقتَل. فجزاه عابس خيرًا وقال له: تَقدّمْ بين يدَي أبي عبد الله حتّى يحتسبك كما احتسب غيرك، وحتّى أحتسبك، فسلّم شَوذَب على الحسين وقاتل حتّى قُتِل.

56) قرّة العيون في المعارف والحكم (للفيض)، ص366.
57) البقرة: 138.
58) بحار الأنوار، ج44 ص243 ح39.
59) كمال الدين، ج2 ص461.

نتيجة هذه الموافقة هي: تلوّن العاشق بلون معشوقه وانصباغه بصبغته من خلال انتقال صفة المعشوق إلى العاشق، بحيث تصير حركات وسكنات ومواقف وحالات وصفات العاشق هي انعكاس وظهور وتَجَلٍّ للمعشوق كالقمر بالنسبة إلى الشمس، وهذا الأمر في غاية الأهمّيّة؛ لأنّ الكثير منّا يتمنّى أن يتعايش مع إمامه المهدي – عجل الله فرجه – بنحوٍ ينظر إليه الإمام، فيا لها من أمنيّة شائقة.

والوسيلة هي: أن يتحمّل العاشق الواله ما يتحمّله الإمام من مصائب ونوائب، فيتساير مع إمامه وينسجم معه ويتأسّى به، فلا محالة سينظر – سلام الله عليه – إليه نظرة رحيمة فيمرض لمرضه ويغتمّ لغمّه، فقد ورد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «ما من أحد من شيعتنا يمرض إلّا مرضنا لمرضه، ولا اغتمّ إلّا اغتممنا لغمّه، ولا يفرح إلّا فرحنا لفرحه»[60]، فما أعظمها من نعمة وما أشدّها من سرور.

فيا أيّها العزيز، لِمَ لا تفرح! إمامُك الّذي هو وجه الله وخليفته، يغتمّ لغمّك ويفرح لفرحك، المفروض أنّ الإنسان يُحلق في الجوّ فرحًا وبهجةً بمجرّد سماعه لهذا الخبر، وهناك سرّ كامن وراء ذلك، ينبغي ذكره في كلمة أخرى...

ظهور آية الرجوع إلى الربّ

كربلاء صارت أرضيّة خصبة لظهور عدد كبير من الآيات القرآنيّة وتحقّق مصداقيّتها، خصوصًا تلك الّتي تبيّن حقيقة الإنسان الكامل وصفاته، ومن تلك الآيات العرشية قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[61].

ففي كتاب ثواب الأعمال، بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «اقرءوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم؛ فإنّها سورة للحسين بن عليّ عليهما السلام، مَن قرأها كان مع الحسين يوم القيامة في درجته من الجنّة، إنّ الله عزيز حكيم»[62].

وأيضًا عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآيات، يعني الحسين بن عليّ عليهما السلام»[63].

60) صفات الشيعة، ص4 ح5.
61) الفجر: 27 - 30.
62) ثواب الأعمال، ص123.
63) تفسير القمّي، ج2 ص422.

وهذه الآية المباركة من أهمّ ما يحتاج إليه من يريد الالتحاق بركب الإمام الحجّة أرواحنا فداه؛ لأنّه لتحقيقها ينبغي الإجابة على عدد من الأسئلة مثارة من بداية الآية إلى نهايتها؛

فقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، كيف يمكن أن تصل النفس إلى مقام الاطمئنان الكامل، وهل مجرد الإدّعاء يكفي؟ لا بدّ من أن تمرّ على الإنسان امتحانات صعبة فيُشاهد موقفه تجاهها؛ كي يقال لها: إنّ هذه النفس بالفعل قد وصلت إلى مقام الاطمئنان.

وهل تعلم إنساناً وصل إلى مستوى الإمام الحسين عليه السلام وهو مرميّ على الرمضاء مضرّج بدمه كيف يناجي ربّه، وكأنّه في مجلس درس وأجواء مهيّئة ومستمعين جالسين أمامه، يقول الراوي: لمّا اشتدّ به الحال رفع طرفه إلى السماء وقال: «اللّهمّ متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال...»[64].

وقوله: ﴿ارْجِعِي﴾، كيف لنا الرجوع إلى ربّنا؟ هل هو بالتقوى، أم بالعمل الصالح، أم بالشهادة؟ وكيف تكون الشهادة، وتحت راية من؟ أجاب على كلّ هذه التساؤلات أبو الأحرار من خلال التضحية بنفسه وأولاده وأصحابه.

قوله: ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، هاتان الصفتان لا يمكن أن تتحقّقا بسهولة، فالرضا أمر عظيم، والأعظم هو أنّ الربّ يكون راضيًا، فكيف لنا أن نعلم برضاه لنا، وما هي السبل للوصول إليها، هل من خلال أداء الفرائض أو النوافل، وهل من خلال العلم أو العمل؟ الإمام الحسين عليه السلام قد أجاب على هذه التساؤلات عملًا، وبالنتيجة قد فُعّلت هذه الآية المباركة في أرض كربلاء، وكم يحسّ الإنسان بالطمأنينة والسكون عندما يسمع قوله: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾، فالخطاب قد نزل كالظرف الفارغ وكان ينتظر من يملأه، وقد ملأه الإمام الحسين عليه السلام بأروع صورة، وهذا ما أعجب عقيلة بني هاشم فقالت: «ما رأيت إلّا جميلًا».

الرؤية الثاقبة والبصيرة النافذة

«يا عمّة، أنت بحمد الله عالمة غير معلَّمة، وفَهِمَة غير مفهَّمة»[65]، كلمات نطقها الإمام زين العابدين عليه السلام في حقّ عقيلة بني هاشم زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام، وقد مسح الإمام الحسين عليه السلام على صدرها فانفتحت لها أبواب السماوات والأرضين، ورأت ما رأت من المقامات العالية والمراتب السامية، خصوصًا شاهدت درجات سيّد الشهداء عليه السلام، ولعلّها نظرت إلى تلك الدرجات الّتي قد خُصّصت للإمام الشهيد؛ حيث خاطب رسولُ الله صلى الله عليه وآله ابنه الإمام

64) مصباح المتهجّد، ج2 ص827.
65) الاحتجاج، ج2 ص305.

الحسين عليه السلام: «وإنّ لك في الجنّة درجات لا تنالها إلّا بالشهادة»٦٦، كما أنّها رأت درجات بني هاشم خصوصًا أبا الفضل العبّاس وقد ورد في زيارته: «ورفع ذكرك في عليّين، وحشرك مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين»٦٧، وأيضًا هي شاهدت مَواطن الأصحاب في الجنّة، فهذا عبد الله الحنفي أخذ يحمي الإمام ويتلقّى السهام بصدره وجبهته، فلم يصل إلى الحسين عليه السلام سوءًا، ولمّا كثرت فيه الجراح التفت إلى أبي عبد الله عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله، أوَفَيتُ؟ قال: «نعم، أنت أمامي في الجنّة، فاقرأ رسول الله عنّي السلام، وأعلمه أنّي في الأثر»٦٨، كما أنّها رأت حقيقة مصباح الهدى وسفينة النجاة، وهما من خصوصيّات سيّد الشهداء عليه السلام، ولولا هاتان الخصلتان لكنّا من الهالكين.

ولكي نتصوّر ما رأته العقيلة ينبغي أن نتوسّل بمثال: لو أنّ شخصًا أراد أن ينتقل في الليل المظلم من ضفّة النهر إلى الجهة الأخرى لخلاص ابنه من الأعداء، فبمجرّد أن قرّر الدخول في الماء فإذا باشتعال مصباح من فوقه على الماء على التماسيح الفاتحة أفواهها لتلقفه، وفي اللحظة الّتي كان يفكّر في ابنه فإذا بسفينه أمامه تريده أن يركب فيها والقبطان هو الّذي سينقله إلى الجهة الأخرى، كم من نعمة عظيمة هذه! هو الإمام الحسين عليه السلام منقذ العباد من جميع الشرور، خاصّة شرّ الجهل والضلال، وقد ورد في الزيارة عن الإمام الصادق عليه السلام قوله في الإمام الحسين عليه السلام: «وبذل مُهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة»٦٩.

هذا ما شاهدته زينب عليها السلام رأي العين، وقد شاهدت ما هو أعظم للعباد، وهو سهولة فتح باب التوبة رغم صعوبته، وذلك من خلال عبرة لا غير.

فهذا هو الإمام الصادق عليه السلام يخاطب أبا عمارة الشاعر قائلًا: «يا أبا عمارة، من أنشد في الحسين عليه السلام شعرًا فأبكى خمسين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين شعرًا فأبكى أربعين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين شعرًا فأبكى ثلاثين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين شعرًا فأبكى عشرين فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين شعرًا فأبكى عشرة فله الجنّة، و من أنشد فى الحسين شعرًا فأبكى واحدًا فله الجنّة، ومن أنشد في الحسين شعرًا فبكى فله الجنّة، ومن أنشد فى الحسين شعرًا فتباكى فله الجنّة»٧٠.

66) الأمالي (للصدوق)، ص152.
67) كامل الزيارات، ص257.
68) اللهوف، ص108.
69) مصباح المتهجّد، ج2 ص788.
70) كامل الزيارات، ص105 ح2.

وفي هذا المجال توجد نصوص كثيرة، علمًا بأنّ زينب هي بنت أمير المؤمنين، الّذي ورد في شأنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾٧١، فمن منطلق رأفته عليه السلام لكافّة العباد بات في فراش الرسول صلى الله عليه وآله، الّذي ورد في شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾٧٢، كما أنّ أمّها عليها السلام أيضًا مظهر الرحمة، ففي الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه: «كانت فاطمة عليها السلام إذا دعت تدعو للمؤمنين والمؤمنات ولا تدعو لنفسها، فقيل لها: يا بنت رسول الله، إنّك تدعين للناس ولا تدعين لنفسك! فقالت: الجار ثمّ الدار»٧٣.

هذا، فالعقيلة قد ورثت من جدّها وأمّها وأبيها هذه الخصلة العظيمة، فبمجرّد أن شاهدت أنّ بقتل أخيها انفتحت أبواب الرحمة والمغفرة والتوبة والإنابة، نادت: «ما رأيت إلّا جميلًا».

كاشف الكرب

صفة من صفات البارئ جلّ وعلا، ففي الدعاء: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرّين، ويا كاشف الكرب العظيم»٧٤، فهو الّذي يكشف عن المضطرّ السوء؛ ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾٧٥.

وأمّا الرسول صلى الله عليه وآله فهو المصداق البارز لصفة الكاشف: «صلّ على محمّد كما دفعتَ به الشقاء، وكشفتَ به الغَمّاء»٧٦.

ثمّ جرى هذا الفيض في أمير المؤمنين عليه السلام: «أخي نبيّك ووصيّ رسولك، البائت على فراشه، والمواسي له بنفسه، وكاشف الكرب عن وجهه»٧٧.

وأمّا الإمام الحسين عليه السلام فقبره منبع الرحمة وكشف الكربة، كما عن فضيل بن يسار، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ إلى جانبكم لقبرًا ما أتاه مكروب إلّا نفّس الله كربته وقضى حاجته»٧٨،

71) البقرة: 207.
72) التوبة: 128.
73) علل الشرايع، ج1 ص182 ح2.
74) تفسير القمّي، ج2 ص186.
75) الأنبياء: 76.
76) مصباح المتهجد، ج1 ص400.
77) المزار الكبير (لابن المشهدي)، ص220.
78) كامل الزيارات، ص167 ح1.

وهذا النهر النورانيّ العظيم قد وصل إلى خراسان، قال رسول اللهﷺ: «ستُدفَن بضعة منّي بخراسان، ما زارها مكروب إلّا نفّس الله كربته، ولا مذنب إلّا غفر الله ذنوبه»[79].

يا أمّ البنين، يا فاطمة بنت حزام بن خالد بن ربيعة بن وحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، من أنت؟ وما شأنك ومنزلتك الرفيعة؟ أُعطيت شبلًا قد رفع رأسك إلى عنان السماء فارتفع مقامك إلى أعلى عليّين، إنّه «كاشف الكرب عن وجه الإمام الحسينعليه السلام»، هو بوّاب الإمام الحسينعليه السلام، بل كان مديرًا لشؤون كربلاء في كافّة المجالات الظاهريّة الولائيّة والعسكريّة والاجتماعيّة؛ حيث كان ركنًا وعمودًا للخيام الحسينيّة، وكلّ عيون الأسرة الهاشميّة كانت تتوجّه إليه وتتطلّع إلى تصرّفاته، وأيضًا كان يدير أمر الملائكة والجنّ والأرواح الّتي كانت تأتي لنصرة الإمام، وما زالعليه السلام يستقبلهم وهم يزورون أخاه الإمام الحسينعليه السلام.

هذا، وكلّما نظر الحسين إليه ابتهج سرورًا، وانبسط وجهه فرحًا، ومن أجل ذلك عندما استأذنه للحرب وقال: أخي، هل من رخصة؟ بكى الحسين بكاء شديدًا، ثمّ قال: «يا أخي، أنت صاحب لوائي، وإذا مضيتَ تَفرَّق عسكري»[80]، وعند استشهاده نادى الإمام الحسينعليه السلام بأعلى صوته: «الآن انكسر ظهري، وقلّت حيلتي»[80]، فلنا أن نرفع أصواتنا: يا كاشف الكرب عن وجه الحسين، اكشف لي كربي بحقّ أخيك الحسين.

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا

هي ملحمة سياسيّة وتأريخيّة، وشعار وشعور لتوطيد العلاقة بين أهداف النهضة ومؤسّسها ومقصدها المقدّس، والتعرّف على أسلوب إحيائها وكيفيّة الارتباط بالمنتقم المنصور من آل محمّد، والتمهيد لظهوره من خلال صناعة الأبطال، الّذين يتحلّون بالتقوى والإيثار والإباء، والانطلاق إلى تجديد البيعة مع أبي الأحرارعليه السلام.

حديث قدسيّ يشتمل على سلام، ثمّ تعزية وتعظيم المصاب، ثمّ اللعن ممّن أسس أساس الظلم والجور عليهم، ثمّ التولّي، ثمّ اللعن، ثمّ الفداء تمهيدًا لطلب الرزق الحسن من خلال أخذ الثأر والتقرّب إلى الله بالتولّي والتبرّي ممّن أسّس أساس الظلم عليهم، ثمّ الترقية في الطموح للوصول إلى المقام المحمود، ثمّ الدعاء للحصول على ثواب المصاب، ومن ثمّ الدخول في ساحة عظيمة من خلال هذا الدعاء: «اللّهمّ اجعل محياى...»، ثمّ التركيز على يوم عاشوراء والتبرّي من بني

79) الأمالي (للصدوق)، ص119 ح2.
80) رياض الأبرار، ج1 ص227.

أمنيَّة واللعن عليهم، ثمّ اللعن مائة مرّة والسلام مائة مرَّة. وأهمّ ما في الزيارة: الصراحة في تبيين العقيدة مع حفظ أصل الوحدة بين المسلمين، وذلك من خلال قوله: «وابدأ به أوّلًا، ثمّ...»، وهو ذو وجوه قد اختفى الحقّ فيه لا يعرفه إلّا أهله، فلو بدأت من الخامس وهو يزيد – عليه لعائن الله – ستصل إلى الحقّ من دون أن تتراجع عن المبادئ الحقّة، ولا تثير أحاسيس إخوانك المسلمين الّذين طالما أوصانا بهم أئمتنا، وأكّد على ذلك مراجعنا الكرام، لاحظ كيف أخفى الله الأسرار هنا، فما لهؤلاء القوم المنكرين لا يكادون يفقهون حديثًا. وأمّا السجود ودعاؤه فيطلب حديثًا عرفانيًا مستقلًا...

أقول: السلام عليكم يا أهل بيت النبوّة، كم أنتم عظماء، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

غيرة الله

في يوم عاشوراء وعندما أصبح الإمام الحسين عليه السلام وحيدًا فريدًا، جاء شمر في جماعة من أصحابه فحالوا بين الإمام الحسين وبين رحله، فصاح الحسين عليه السلام: «ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحرارًا في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عَرَبًا كما تزعمون»، فناداه شمر: ما تقول يا ابن فاطمة؟ فقال: «إنّي أقول: إنّي أقاتلكم وتقاتلونني، والنساء ليس عليهنّ جناح، فامنعوا عُتاتكم وجُهّالكم وطُغاتكم من التعرّض لحرمي ما دمت حيًا»، فقال شمر: لك ذلك يا ابن فاطمة، فقصدوه بالحرب[81].

ولكن المصيبة العظمى ما نقله المسعودي: أقام أمير المؤمنين عليه السلام ومن معه من شيعته في منزله بما عهد إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، فوجّهوا إلى منزله فهجموا عليه وأحرقوا بابه واستخرجوه منه كرهًا، وضغطوا سيّدة النساء بالباب حتّى أسقطت محسنًا، وأخذوه بالبيعة فامتنع وقال: «لا أفعل». فقالوا: نقتلك...[82]، فالهجوم وقع بمرأى من صاحب الغيرة أمير المؤمنين عليه السلام.

فبُهت الّذي كفر

ينقل عن بروفسور فرنسي مستبصر أنّه قال: كلّ الأديان تموت بموت أنبيائها، والسنّة ماتوا بموت محمّد، والشيعة رفضوا أن يموتوا؛ لأنّهم انطلقوا بالحسين في بداية الطريق، ووضعوا المهدي في آخر الطريق. الإمام الحسين يدفعهم من عمق التأريخ، ويستدعيهم الإمام المهديّ من المستقبل أن هلمّوا.

81) اللهوف، ص120.
82) إثبات الوصيّة، ص146.

كما أنّه ينقل عن أعداء الإسلام: بأنّ المذهب الشيعي يبتني على رؤيتين، لا بدّ من القضاء عليهما إمّا استئصالًا أو تشويهًا، الأولى: إحياء ذكرى عاشوراء، والثانية: انتظار فرج وليّ الله.

فحارَبوا الأولى بالدعوة إلى «التطبير» من خلال وسائل الإعلام الدخيلة من شرذمة قليلة، ومن الواضح أنّ منظر الدم ينزجر منه الإنسان خاصّة لو تلطّخ بالوجه، ولكن خاب أملهم بوقوف المراجع العظام قبال هذه الظاهرة.

وحاربوا الثانية – أعني الانتظار – بالتفسير الخاطئ له، وهو السكون والخنوع، وقبول الظلم، وعدم الاهتمام بالأمّة، وعدم شرعيّة الجهاد والنضال والوقوف قبال الظالمين، وهنا أيضًا لم ينجحوا؛ حيث انتصار الثورة المباركة على يد الإمام الخميني، واستمرار نهجها على يد الإمام الخامنئي حفظه الله.

فراق الإمام فراق الله

لقاء الله هو أعلى مرتبة يمكن أن يصل إليها الإنسان بالمجاهدة المستمرّة وبالسير والسلوك، ولاشكّ أنّ ذلك أمر غير مستحيل، كيف وقد صرّح سبحانه بذلك في القرآن الكريم، فينبغي أن يكون ذلك أمنية كلّ مؤمن، وعليه أن يصل إلى هذه الدرجة قبل الانتقال إلى عالم البرزخ، وهذا ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[83].

فالبشر عندما يوحّد الله ينبغي أن يرجو لقاء ربّه، وذلك من خلال العمل الصالح من نمط ما فعله أصحاب الكهف والنبيّ موسى وذوالقرنين، فهي بعيدة كلّ البعد عن الشرك – الجليّ منه والخفي –.

السؤال الّذي يطرح نفسه، هو: كيف يتحقّق هذا اللقاء؟ وفي المقابل ماذا يعني الفراق؟

أجاب على هذا السؤال أمير المؤمنين في دعاء كميل: «فلئن صيّرتني للعقوبات مع أعدائك وجمعت بيني وبين أهل بلائك وفرّقت بيني وبين أحبّائك وأوليائك، فهَبْني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرتُ على عذابك فكيف أصبر على فراقك»[84]، وهذا يعني: أنّ فراق الله فراقُ أحبّائه وأوليائه، وهم أهل البيت بالأصالة، والأنبياء ثمّ الأولياء بالتبع.

83) الكهف: 110.

84) مصباح المتهجد، ج2 ص847.

فقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من رآني فقد رأى الحقّ»[85] وفي الزيارة الجامعة الكبيرة: «من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن أحبّكم فقد أحبّ الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله، ومن اعتصم بكم فقد اعتصم بالله»[86]، فلا بدّ من الفناء فيمن فنى في الله تعالى، فبالنتيجة: يكون العبد قد وصل إلى لقاء الله.

ومن هذا البيان يمكنك أن تتعرّف على السرّ الكامن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...﴾[87]؛ حيث جاء بضمير المتكلّم مع الغير: ﴿لِقَاءَنَا﴾، فالوصول إلى الأولياء هو الوصول إلى الربّ. وتدبّر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[88]، ثمّ ارجع إلى قول الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة الجامعة الكبيرة مخاطبًا الأئمّة: «وإياب الخلق إليكم، وحسابهم عليكم»[89].

وفي نهاية المطاف تنكشف لك أسرار شهداء الطفّ؛ حيث ارتقوا إلى أعلى عليّين، فهم وصلوا إلى لقاء الله بلقاء الإمام الحسين عليه السلام: «من كان باذلًا فينا مُهجتَه، ومُوطّنًا على لقاء الله نفسَه، فليرحل معنا؛ فإنّني راحلٌ مُصبحًا إن شاء الله تعالى»[90].

ولذلك كان رأس الحسين عليه السلام يتلو سورة الكهف، فقد روى أبو مخنف، عن الشَّعْبي: أنّه صُلبَ رأس الحسين بالصَّيارف في الكوفة، فتنحنح الرأس وقرأ سورة الكهف إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾[91].

وروى الشيخ المفيد في الإرشاد، عن زيد بن أرقم أنّه قال: مُرَّ به عَلَيَّ وهو على رمح وأنا في غرفة، فلمّا حاذاني سمعته يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[92].

فتنبّه أيّها الحبيب من نوم الغفلة، واسْعَ في معرفة أهل البيت حقّ المعرفة.

---

85) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1 ص413 «حقق».
86) من لا يحضره الفقيه، ج2 ص613.
87) الفرقان: 21.
88) الغاشية: 25 - 26.
89) من لا يحضره الفقيه، ج2 ص612.
90) اللهوف، ص61.
91) مناقب آل أبي طالب، ج4 ص61.
92) الإرشاد، ج2 ص117.

ضرورة الإصلاح

هل سمعت أذناك أنّ في جامعة من الجامعات – حتّى لو كانت في دولة فقيرة – يكون الأستاذ لديه المؤهّلات العلميّة اللازمة للتدريس – كان يكون حاصلًا على شهادة الدكتوراه أو الماجستير –، وفي السنة التالية يستبدل بشخص آخر لا يمتلك حتّى الشهادة الابتدائيّة! وليس لديه أدنى فكرة عن تلك المادّة! كلّ ما هنالك أنّه يمتلك قدرة بيانيّة عاليةٍ! ما الّذي سينتظر عميد الجامعة يا ترى جرّاء فعلته تلك؟ بالطبع سيحاكم، ويجازى بأشدّ الجزاء، وربّما يُسجَن؛ لأنّه أضاع حقوق الطلبة.

ولكن فلنعلم بأنّ هذا ما يجري على أرض الواقع في الجامعات الإسلاميّة المنسوبة إلى سيّد الشهداء؛ حيث يكون الخطيب من أمثال عميد المنبر الدكتور الوائلي، وفي السنة المقبلة يرتقي ذات المنبر من لا يتجاوز عمره ٢٥ سنة، وربّما لم تظهر عليه بعد آثار البلوغ السنّي، بل لمّا يتحصّل على أساسيّات المعارف الإسلاميّة، حتّى أنّ بعضهم لم يكمل الدراسة الثانوية الأكاديميّة، وهذا هو العجب العجاب الّذي قد حيّر ملائكة السماء.

فليحذر بعض القائمين على الحسينيّات من عذاب يوم عظيم، وليترقّبوا المحكمة الإلهية؛ حيث لم يستغلّوا فرصة تواجد ذلك الجمع الغفير في أيّام العشرة من محرّم بما ينفعهم، وربّما قد سَمّوا أذهان الكثير منهم.

والأعجب من ذلك هو: أنّه عندما يتمّ النقاش في المعتقدات الدينيّة والقضايا الولائيّة، ترى أنّ البعض يستند على صحّة قوله الباطل بكلام ذلك الجاهل المركّب الّذي ارتقى منبر أبي عبد الله الحسين من دون استحقاق وكفاءة! فيقال: هو قال على المنبر كذا وكذا، وكأنّه مجتهد حوزويّ ومرجع دينيّ يؤخذ برأيه، وهذا هو ترجيح المرجوح على الراجح بعينه، الّذي فعله القوم، وقد وقع موقع النقد منّا نحن الشيعة الإماميّة.

نقول لمثل هؤلاء: ثَبّت العرش ثمّ انقش. روى زيد الشحّام، عن أبي جعفر – في قول الله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[93]– قال قلت: ما طعامه؟ قال: «علمه الّذي يأخذه ممّن يأخذه»[94].

93) عبس: 24.
94) المحاسن (للبرقي)، ج1 ص220 ح127.

فيا عزيزي: لا تسمح لروحك وعقلك وقلبك أن تستقبل كلّ ما سمعته من الخطيب، بل كن من أولي الألباب أصحاب الدقّة والتأمّل وتمييز الحقّ من الباطل. هذا ولا شكّ أنّني لا أوجّه حديثي إلى من يذكر مصائب أهل البيتˆ فقط ويُبكي الناس، فهذا شأنه عظيم لا يعلمه إلّا الله سبحانه.

اقتراح بنّاء

استمعت إلى أحد كبار الخطباء الحوزويّين وهو ذو علم غزير واطّلاع وسيع وصوت شجيّ، ولكن في أهمّ مناسبة – أعني: العشرة الأولى من محرّم – رغم كثرة مستمعيه كان يتطرّق إلى موضوع بسيط أخلاقيّ قد طُرح من قبل مئات المرّات ولا يحتاج إلى دراسة عميقة، لا يسمن ولا يغني من جوع، وكنت أتمنّى أن يتطرّق إلى جوانبه من المقدّمات والصميم ثمّ النتيجة مستشهدًا بالآيات الكريمة وبعض الأحاديث المباركة ليخرج المستمع وقد حمل معه كمًّا من المعلومات المفيدة لآخرته ودنياه، ولكن قد خاب ظنّي وأحزنني كثيرًا، وقلت في نفسي: أسفًا على هذا المذهب الحقّ – الّذي قد أهريقت من أجله دماء أهل البيتˆ ومئات الملايين من الشهداء – قد وقع في يدنا نحن القاصرين المقصّرين! وبعد مراجعة الخطيب نفسه تبيّن لي أنّ هناك عائقين يحولان دون طرح البحث بالكامل:

الأوّل: رئيس الحسينيّة؛ حيث يطلب منه أن يقرأ أبيات شعريّة ونعي في البداية حوالي ١٠ دقائق، وفي النهاية على الأقلّ ٢٠ دقيقة، فلم يَبقَ له وقت لإلقاء الكلمة.

الثاني: لدى هذا الخطيب في اليوم الواحد خمسة مجالس، ثلاثة ليلًا واثنان نهارًا! فما عسى أن أقول إلّا: «على المذهب السلام إذ قد بليت الأمّة بهؤلاء القوم»؛ اقترح أن يخصّص النهار للملالي غير الدارسين في الحوزة لقرائة المصائب فقط تفصيلًا، وفي الليل للخطباء العلماء الحوزويّين لطرح بحث متكامل مع قراءة مصيبة مختصرة.

أتمّ القصص

قد عبّر القرآن الكريم عن قصّة يوسف بأنّها «أحسن القصص»؛ لأنّها شاملة لمجمل مسير البشريّة ممّا جعلته حسنة، فلا نمرّ على موقف إلّا ونشاهد فيه حُسنًا لا مثيل له. وأمّا قصّة رسول اللهﷺ فهي «أفضل القصص»؛ من حيث أهمّيّة تلك المواقف وإن كانت مشتملة على حوادث مؤلمة جدًّا. ويمكن التعبير عن قصّة أمير المؤمنينؑ بأنّها «أكمل القصص»، وذلك بعد تنصيبه

وليًّا لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ حيث اكتمل الدين وإن لم يتمّ الدين باعتبار وجود الكفّار والمنافقين الّذين كانوا السبب في الحيلولة دون تجلّي حكمه الإلهي. وأمّا واقعة الإمام الحسين عليه السلام فهي «أتمّ القصص»؛ لأنّها هي الواقعة التامّة حيث نشاهد جميع أبعاد الخير والشرّ ظهرت في كربلاء: من معتقدات فكريّة، وقيم أخلاقية، ومواقف ميدانيّة.

تبقى واقعة الإمام المهدي – عجّل الله فرجه – فهي في الحقيقة «ظهورُ القصص» جميعًا، ولذلك أطلق على الإمام: «جامع الكلم»، ورد في الزيارة: «السلام على مهديّ الأُمَم وجامع الكلِم، السلام على خَلَفِ السّلَف وصاحب الشرف»[95]، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «وسيّدنا القائم عليه السلام مُسنِدٌ ظهره إلى الكعبة ويقول: يا معشر الخلائق، ألا ومن أراد أن ينظر إلى آدم وشيث فها أنا ذا آدم وشيث ... ألا ومن أراد أن ينظر إلى محمّد وأمير المؤمنين عليهما السلام فها أنا ذا محمّد و أمير المؤمنين، ألا ومن أراد أن ينظر إلى الحسن والحسين عليهما السلام فها أنا ذا الحسن والحسين، ألا ومن أراد أن ينظر إلى الأئمّة من ولد الحسين فها أنا ذا الأئمّة»[96].

خرق الحجب

إنّ أنبياء الله وأولياءه لم يعاصروا واقعة الطفّ المؤلمة، ولكن كانوا مطّلعين عليها تفصيلًا، ولذلك كانوا يقصدون كربلاء وبالتحديد الموضع الّذي يقتل فيه سيّدُ الشهداء عليه السلام، وبذلك كانوا ينتفعون كثيرًا، وبما أنّ قصّة كربلاء هي «أتمّ القصص» فكانوا يحظّون بالنعمة التامّة من خلال تلك الزيارة ميدانيًا ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾[97].

هذا، ولا يظنّ بأنّه يمكن للأمم السابقة أن يرتقوا كمال الارتقاء من خلال الارتباط بتعاليم الأنبياء بما هم أنبياء، كلّا! بل كانوا يوجّهون الناس إلى حيث هم متوجّهون إليه – أعني: إلى بيوت أهل البيت عامّة، وإلى بيت الإمام الحسين عليه السلام خاصّة – فيَدخلون ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾[98]، و من ورائهم يدخل المؤمنون من أقوامهم، فيغوصون في بحر النعمة، وينغمرون في عالم النور، فيتنوّرون ثمّ ينوّرون أممهم.

وهذا عامٌّ بالنسبة إلى جميع أهل البيت، ولكن لا يحدث ذلك إلّا من خلال مقدّمات وتهيئة أرضية للدخول في تلك البيوت، ولذلك لا يسع كلّ إنسان أن يتنوّر بهم إلّا أن يكون قد تطهّر مسبقًا بنسبة على الأقلّ ثلاثين بالمائة.

95) المزار الكبير (لابن المشهدي)، ص589.
96) بحار الأنوار، ج53 ص9.
97) المائدة: 6.
98) النور: 36.

ولكن سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام فهو مستثنًى من هذه القاعدة، فكلّ من أراد أن يحلّق روحه نحو الملأ الأعلى فلا عليه إلّا أن يدخل في حريم أبي عبد الله عليه السلام، وذلك من خلال البكاء واللطم على الصدر و الزيارة، بل وحتّى التباكي، كما أنّ «السجود على تربة أبي عبد الله عليه السلام يخرق الحجب السبع»[99] روي ذلك عن الصادق عليه السلام.

وأدلّ دليل على ذلك ما يشاهده العالم أجمع ميدانيًّا في الأربعين مشيًا على الأقدام، فكم من الناس يعترفون بذنوبهم الكثيرة، ومع ذلك لا يرون أنفسهم قد منعوا من زيارة الأربعين، بل يدركون بوجدانهم أنّهم من خلال الزيارة ستنمحى ذنوبهم بل سيرتقون إلى الملأ الأعلى.

فيا لها من معجزة عظيمة حيّرت ملائكة السماء، ولا شكّ أنّها أعظم من عصا موسى، وخاتم سليمان، بل هي أعظم من إحياء الموتى. هي المصداق البارز لقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ...﴾[100].

من هذا المنطلق تعرف أهمّيّة الإمام الحسين، وأهمّيّة إحياء المجالس الحسينيّة والتأكيد على إحيائها والثواب العظيم في ذلك ممّا يحيّر العقول.

يا حبيبي، فليكن همّك في العشرة منصبًّا في مجالس العزاء، ولا يخدعك إبليس فيشغلك بأمور الدنيا الدنيّة، فهذه هي الخسارة الكبرى، كما أنّ التفرّغ للمجالس الحسينيّة هو الفوز العظيم.

الشريعة والمنهاج

لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب، وفيها طلبٌ من الله في غاية الأهمّيّة، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كأنّ الله سبحانه قد لبّى طلب العبد مسبقًا بالنسبة إلى الجزء الثاني من الطلب؛ حيث جسّد لنا الصراط المستقيم من خلال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام.

أمير المؤمنين عليه السلام هو الّذي رسم الصراط المستقيم، بل هو الصراط بعينه، الّذي يمثّل الجادّة الوسطى الّتي توصل الإنسان المؤمن إلى الجنّة عبورًا بجهنّم، وكما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «هو أدقّ من الشّعر وأحدّ من السيف...»[101].

99) مصباح المتهجّد، ج2 ص734.
100) الأنعام: 122.
101) تفسير القمّي، ج1 ص29.

والصراط هو في داخل جهنّم كالجسر الغارق في البحر، وبما أنّ جميع الخلق يمرّ على الصراط فكلّهم يردون في النار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[102]، غاية ما هناك أنّ المؤمن إذا ورد يرتفع صراخ جهنّم: أن أسرع في مشيك واخرج وابتعد عنّي، فكاد نورك يخمد لهبي!!

وأمّا الأنبياء والأولياء فيختلف أمرهم تمامًا، ففي الحديث: «جُزناها وهي خامِدة»[103].

هذا، وينبغي أن تكون قلوبنا مملوّة بالولاية نفسها لكي يتنسّى لنا العبور على الصراط المستقيم.

والنتيجة: أنّ الصراط المستقيم علويّة.

التلبية الإلهيّة الثانية هي بخصوص ﴿اهْدِنَا﴾؛ لأنّنا نسأل عن كيفيّة العثور على الصراط والمرور عليه عملًا.

الإمام الحسين عليه السلام قد استعرض لنا كيف نهتدي من الناحية العمليّة إلى الصراط المستقيم، وكيف نمرُّ عليه، هو قد أوجد لنا ورشة عمل عجيبة لا مثيل لها.

ارتفع دويّ خطابه للناس عامّة، فقال: «فليرحل معنا»، فجعل سيّد الشهداء الهداية إلى الصراط نصب أعيننا، وعلّمنا كيف نهتدي ثمّ نخطو على الصراط المستقيم، فبالحسين عليه السلام قد تمّ الدين من خلال استعراض «المنهاج» وهو أسلوب الحركة على الصراط ميدانيًا، كما أنّه قد كمل الدين بعليّ عليه السلام من خلال استعراض «الشريعة»، ولولا هداية الإمام الحسين الّتي هي «أتمّ القصص» لكنّا إمّا من زمرة المغضوب عليهم أو من مجموعة الضالّين.

وعلى ضوء ما بيّنّا: فكلّ من يريد الهداية إلى الصراط فهو بحاجة ملمّة إلى الدخول في مدرسة الطفّ العظيمة، وهذا الحاجة لا تختصّ بعامّة الناس، بل هي شاملة حتّى للأنبياء أو الأولياء، ولذلك كانوا يزورون كربلاء ويبكون والإمام الحسين عليه السلام لم يولد بعدُ! كما أنّ مدرسة كربلاء شاملة للنساء والرجال والشيوخ والأطفال حتّى الطفل الرضيع، كلّ من دخلها اهتدى إلى الصراط حتّى النصراني والغلام التركي، وكلّ من لم يدخلها ابتعد عن الصراط حتّى الصحابي والتابعي.

مدرسة رغم شدائدها وآلامها وأحزانها ومصائبها فهي جميلة جدًّا، قد جمّلت الدين بعد اكتماله، فيا لها من صنيعة إلهيّة عظمى ذات جمال لا نظير له، ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ

102) مريم: 71.

103) علم اليقين (للفيض)، ج٢ ص1184.

كُلٌّ شَيْءٍ ﴾١٠٤، أما ترى كيف تجيب زينب عليها السلام الطاغية عبيد الله حينما خاطبها: كيف رأيت صُنْعَ اللهِ بأخيك وأهل بيتك؟ فقالت: ما رأيت إلّا جميلًا.

فالجدير أن نسلّم على كلٍّ من الإمام الحسين عليه السلام الهادي إلى الصراط، وأمير المؤمنين عليه السلام الصراط نفسه، فنقول: «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره»، هذا هو انعكاس قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

الذنوب العظام

هناك شبه واضح بين الجبل وبين الجمل من ناحية الشكل ومن ناحية الاسم، وكأنّ حقيقتهما تنبع من أمر واحد، كلاهما يظهران الأنانيّة والتبختر والتكبّر والغرور، ولا تظنّن أنّ الله قد خلق خلقًا سواء الجمادات والنباتات والحيوانات من دون أن تكون لها مساس بالإنسان! كلّا، ومن معان قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا... ﴾١٠٥، هو ذلك، أعني: أنّ كلّها تحمل رسائل للإنسان، فهي بلسان حالها تريد هدايتهم إلى الصراط المستقيم، فالنفس إن تركت وشأنها فهي تغترّ وتتبختر كالجبل، فلا بدّ إذن من ترويضها ومن ثمّ دكّها واستبدالها إلى تراب متواضع، كما فعل مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام؛ حيث قال: «إنّما هي نفسي أروضُها بالتقوى»١٠٦، ولذلك صارت كنيته أبا تراب! أطلق عليه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ حيث ارتقى والزبير، والجمل جملهم»١٠٧، وهذا من باب الجري والتطبيق السائد في القرآن الكريم، فتأمّل ولا تغفل.

فيا أيّها العزيز: فلنَسْعَ في تحطيم جبل نفسونا أو على الأقلّ من تصغيره وتقليله، وذلك من خلال التواضع واحترام الآخرين، وعدم رؤية أنفسنا وكأنّنا أعلمهم وأفضلهم وأتقاهم. وكذلك فلنحاول أن نرقّق جَمل قلوبنا؛ لعلّها تصل إلى درجة من الرقّة بحيث تصير وكأنّها خيط رقيق قد ولج في سمّ الخياط، أي: ثقب الأبرة، وبالنسبة إلينا – نحن المبتلين بأنواع الحجب – هيهات أن يتحقّق ذلك، اللّهمّ إلّا من خلال أمر واحد لا ثاني له، وهو:

البكاء على مصاب السيّد المظلوم، قتيل العبرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وعلى ضوء ذلك تعرف السرّ في كثرة الأحاديث في فضل البكاء عليه، ونذكر هناك حديثين عن مولانا – ومَن نحن في

104) النمل: 88.
105) البقرة: 29.
106) نهج البلاغة (لصبحي صالح)، ص417.
107) تفسير القمّي، ج1 ص230، تفسير العيّاشي، ج2 ص17 ح40.

خدمته ومن زوّاره – الإمام الرضاعليه السلام؛ حيث قال: «يا ابن شبيب، إن كنت باكيًا لشيء فابْكِ للحسين بن عليّ بن أبي طالب؛ فإنّه ذُبح كما يُذبَح الكبش»[108].

وقالعليه السلام: «إنّ يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا بأرض كرب وبلاء، وأورثتنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فلْيَبْكِ الباكون؛ فإنّ البكاء يحطّ الذنوب العظام»[109].

يا عزيزي: لاحظ وتأمّل في قوله: «يحطّ الذنوب العظام» لتعرف صحّة ما بيّناه، وفّقنا الله وإيّاكم لذلك.

باذلاً مهجته

كم هو جميل هذا الحديث الّذي نقله العارف الفذّ ملّا محسن الفيض الكاشاني، وهو من الأحاديث القدسيّة الإلهيّة:

«من طلبني وجدني، ومن وجدني عرفني، ومن عرفني أحبّني، ومن أحبّني عشقني، ومن عشقني عشقته، ومن عشقته قتلته، فمن قتلته فعليَّ ديته، فمن عليَّ ديته فأنا ديته»[110].

وقد تطرّق الحديث إلى المراحل السبعة الّتي ينبغي أن يجتازها العارف بالله، وهي: الطلب، الوجدان، المعرفة، المحبّة، العشق، الشهادة، الفناء.

فالهدف الأسمى هو لقاء الله، الّذي يتمّ من خلال الشهادة في سبيل الله تعالى، ولذلك قال الإمام الحسين في خطبته: «من كان باذلًا فينا مُهجتَه، ومُوطّنًا على لقاء الله نفسَه، فليرحل معنا؛ فإنّني راحِلٌ مُصبِحًا إن شاء الله تعالى»[111].

قال جلال الدين الرومي في قصيدته العرفانيّة الجميلة:

(حيلت رها كن عاشقا، ديوانه شو ديوانه شو): أترك عنك الحِيَل أيّها العاشق وكن مجنونًا

(واندر دل آتش درآ، پروانه شو پروانه شو): ثمّ اخرج من النار وكن فراشة تطوف حول النار

(هم خويش را بيگانه كن، هم خانه را ويرانه كن): انْسَ نفسك وخرّب بيتك

108) الأمالي (للصدوق)، ص130 ح5.
109) الأمالي (للصدوق)، ص128 ح2.
110) قرّة العيون في المعارف والحكم (للفيض)، ص366.
111) اللهوف، ص61.

(آنگه بیا با عاشقان، هم خانه شو هم خانه شو): ثمّ تعال اسكن مع العشّاق.

هذا يعني بذل النفس في سبيل المعشوق، وهكذا كان أنصار أبي عبد الله الحسين عليه السلام وصلوا إلى مستوى من الفناء بحيث أنّهم كانوا يشعرون بالسرور، فكانوا يتسابقون إلى الشهادة.

روي عن أبي جعفر عليه السلام: «قال الحسين بن عليّ عليه السلام لأصحابه قبل أن يقتل: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا بنيّ، إنّك ستُساق إلى العراق، وهي أرض قد التقى بها النبيّون وأوصياء النبيّين، وهي أرض تدعى عمورا، وإنّك تُستشهَد بها ويُستشهَد معك جماعة من أصحابك لا يجدون ألم مسّ الحديد، وتلا: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[112]، تكون الحرب عليك وعليهم بردًا وسلامًا...»[113]، فلنكن من الموطّنين أنفسنا للقاء الله؛ لنحيى محياهم، ونموت على ما ماتوا.

أبعاد الواقعة

إنّ لواقعة عاشوراء أبعاد أربعة:

البعد الأوّل: هو البعد الظاهري الدنيوي، فكان هناك صراع ظاهريّ بين جيشين – هاشميّ وأمويّ – وحدث ما حدث من الظلم والطغيان والقتل والسلب ما أبكت جميع الكائنات.

البعد الثاني: هو في عالم الذرّ، فجميع المؤمنين من الناس كانوا – وهم في ذلك العالم – يرغبون أن يتواجدوا في كربلاء؛ كي يدافعوا عن إمامهم، فلا شكّ بأنّ عالم الذرّ له إشراف كامل على الدنيا – كما ثبت في محلّه – ولذلك نقول: «يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزًا عظيمًا».

هذا لسان قلب المؤمن حقًّا بلا مبالغة أو كذب، وحاشا للإمام أن لا يجيبك، فمتى سيجيبك؟ في الرجعة إن شاء الله، فتكون من جملة أنصاره المنتصرين له المستشهدين بين يديه، كما أنّك عندما كنت في ذلك العالم قد شاهدت قلوب طرفَي الصراع وصفاتهما ونواياهما وحالاتهما؛ لأنّ الأرواح لا ترى إلّا الصفات الباطنيّة الروحيّة من دون الأجساد، وأنت عندما كنت روحًا متواجدًا في ذلك العالم – أعني: عالم الذرّ – رأيت الصفات السبُعيّة في جيش عمر بن سعد، هي نفسها الّتي صرّح بها سيّد الشهداء حيث قال: «كأنّي بأوصالي تتقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء»[114].

112) الأنبياء: 69.
113) الخرائج والجرائح، ج2 ص848 ح63.
114) اللهوف، ص61.

والجدير بالذكر أنّك تقول في الزيارة الشعبانيّة مخاطبًا سيّد الشهداء عليه السلام: «صلّى الله عليك عددَ ما في علم الله، لبّيك داعي الله، إن كان لم يُجبْك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري، ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾١١٥»١١٦، هذا أدّل دليل على أنّك كنت حاضرًا في الواقعة وشاهدًا عليها.

وأيضًا في زيارة أخرى تقول: «أتيتك مجدِّدًا الميثاقَ فاشهد لي عند ربّك أنّك أنت الشاهد»١١٧، كلّ ذلك دالٌ على أنّك قد عاهدت إمامك في عالم الميثاق بأنّك معه لا مع غيره، وجئت لزيارته لتجديد الميثاق.

والأرواح الخبيثة – خصوصًا بنو أميّة – أيضًا كانوا حاضرين في عرصة كربلاء يشجّعون الجيش الأمويّ، وهذا هو من الأسباب الّتي جعلتنا نلعن السابقين واللاحقين جيلًا بعد جيل إلى يوم القيامة: «اللّهمّ العن بني أميّة قاطبة».

البعد الثالث: هو الجانب البرزخي، فجميع الأرواح من الأنبياء والصالحين – الّتي ماتت قبل واقعة الطفّ وانتقلت إلى الجسم البرزخي – قد تواجدوا في عرصات كربلاء ولم تفتهم تلك الفاجعة العظمى؛ لأنّهم كانوا مشتاقين إلى الوصول إلى أرض كربلاء قبل الحادثة، فكيف لا يأتون ولديهم الحرّيّة الكاملة في الانتقال.

البعد الرابع: جنّة كربلاء، رسول الله صلى الله عليه وآله – وهو في الجنّة – كان يشاهد ابنه الإمام الحسين وأولاده وأصحابه كيف يدافعون عن حريم الإسلام، كما أنّ مهمّته في الجنّة كانت السقاء – أعني: إرواء عطش الإمام الحسين وابنه عليّ الأكبر وربّما سائر الشهداء – ومن أجل ذلك أقول: إنّ أشبه الناس بالرسول – عليًا الأكبر – لم يسقط على الأرض، بل سقط في حضن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولذلك قال: يا أبتاه، هذا جدّي رسول الله، قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبدًا، وهو يقول: «العجل العجل، فإنّ لك كأسًا مذخورة حتّى تشربها الساعة»١١٨.

كما أنّه عندما أخذ الإمامُ الحسين الطفلَ إلى الميدان – وهو عطشان – خاطبهم: «يا قوم، إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل»، فرماه رجل منهم بسهم فذبحه، فجعل الحسين عليه السلام يبكي ويقول: «اللّهمّ احكُمْ بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا»، فنودي من الهواء: دَعْهُ يا حسين؛ فإنّ له مُرضِعًا في الجنّة١١٩، فالمرضع في الجنّة كأنّها كانت تنتظر الطفل لترضعه!

115) الإسراء: 108.
116) الإقبال بالأعمال الحسنة، ج3 ص342.
117) كامل الزيارات، ص210 ح7.
118) بحار الأنوار، ج45 ص44.
119) تذكرة الخواصّ، ص227.

وأمّا الإمام الحسين عليه السلام فسقط في حضن أمّه السيّدة الرضيّة المرضيّة، وجاء الخطاب من الله سبحانه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[120].

ضجّت الملائكة

الأحاديث من الفريقين تؤكّد أنّ عددًا من الأنبياء – منهم أولوا العزم من الرسل – قد زاروا أرض كربلاء بأجسادهم قبل حدوث الواقعة بآلاف السنين! فلا شكّ أنّ أرواحهم أيضًا كانت حين الواقعة متواجدة هناك، كما أنّهم بأرواحهم يزورون الإمام الحسين عليه السلام غداةً ورواحًا، فقبره عليه السلام هو مختلف الأرواح الطيّبة.

وكذلك الملائكة – سواء المقرّبون أو الموكّلون – تواجدوا حين ذاك ويختلفون عند قبره عليه السلام، كما أنّ مؤمني الجنّ لم تَفتهم هذه النعمة العظيمة.

فبالنتيجة: كربلاء كانت – ولا زالت – مليئة بأرواح الطيّبين من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين والملائكة والجنّ.

هذا، ولكن الجدير بالذكر أنّ طائفين من المخلوقات – رغم تواجدهم حين الواقعة – لم يكن لهم دور في القتال معه عليه السلام رغم قوّتهم، اللّهمّ إلّا التأييد والنصر بالتشجيع، وهما «الملائكة والجنّ». والسبب يرجع إلى موقف هذين المخلوقين:

أمّا الملائكة؛ فالسبب يكمن في موقفهم غير المدروس في قبال قوله تعالى لهم: ﴿...إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾؛ حيث ﴿...قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾[121]، وهذا الكلام يضمن نوعًا من التعجّب، الّذي لم يتوقّع منهم، وهم ﴿...عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[122]، فشرعوا بالانتظار عندما أجابهم سبحانه، فقال: ﴿...إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[123].

فرغم وجود الإفساد في الأرض وسفك الدماء، هناك أسرار وراء خلق الإنسان لا يعلمها إلّا الله تعالى، هذا ما جعل الملائكة في حيرة من أمرهم، ولذلك ورد في الحديث عن أبي عبد

120) الفجر: 27 - 30.
121) البقرة: 30.
122) الأنبياء: 26 – 27.
123) البقرة: 30.

الله عليه السلام: «...لمّا قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ضجّت الملائكة من ذلك وقالوا: يا ربّ، إن كنت لا بدّ جاعلاً في الأرض خليفة فاجعله منّا ممّن يعمل في خلقك بطاعتك، فردّ عليهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾...»١٢٤.

والجدير بالذكر أنّ الملائكة أيضًا ضجّت حينما قتل الحسين عليه السلام. قال أبو عبد الله عليه السلام: «لمّا كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان، ضجّت الملائكة إلى الله بالبكاء وقالت: يفعل هذا بالحسين صفيّك وابن نبيّك؟ قال: فأقام الله لهم ظلّ القائم عليه السلام وقال: بهذا أنتقم لهذا»١٢٥.

ولكن هل كانت لديهم حيلة للحيلولة دون حدوث الواقعة؟ كلّا! بل عندما جاءوا لنصرة الحسين رأوه مقتولًا صريعًا، كما في حديث الريّان بن شَبيب – الطويل –، عن الرِّضا عليه السلام: «ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره فوجدوه قد قتل، فهم عند قبره شُعْثٌ غُبْرٌ إلى أن يقوم القائم فيكونون من أنصاره، وشعارهم: يا لثارات الحسين»١٢٦.

ولكن لا يخفى عليك أنّهم لا ينصرون الإمام الحجّة – عجل الله فرجه – بالقتال، بل بالتأييد وإيجاد الرعب في قلوب الأعداء، كلّ ذلك لأنّهم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

وأمّا مؤمنو الجنّ: فأمرهم أصعب؛ حيث يترأّسهم إبليس اللعين كُرهًا، كما يشير لذلك سبحانه بإشارة لطيفة في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا﴾١٢٧، فهم لا يعترفون في قيادته رغم اعترافهم أنّه منهم ﴿سَفِيهُنَا﴾! وكأنّه سبحانه يريد منهم أن يقضوا عليه ليتخلص البشر من شرّه ولم يفعلوا! ولذلك هم جاءوا لنصرة الحسين عليه السلام.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «لمّا سار أبو عبد الله الحسين بن عليّ عليه السلام من المدينة، لقيه أفواج من الملائكة المسوّمين والمردفين في أيديهم الحراب على نُجُب من نجب الجنّة، فسلّموا عليه وقالوا: يا حجّة الله على خلقه بعد جدّه وأبيه وأخيه، إنّ الله عزّ وجلّ أمدّ جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله بنا في مواطن كثيرة، وإنّ الله أمدّك بنا. فقال لهم: الموعد حفرتي وبقعتي الّتي أستشهد فيها وهي كربلاء، فإذا وردتها فأتوني.

فقالوا: يا حجّة الله، إن الله أمرنا أن نسمع لك ونطيع، فهل تخشى من عدوٍّ يلقاك فنكون معك؟ فقال: لا سبيل لهم عليَّ ولا يلقوني بكريهة أو أصل إلى بقعتي.

124) علل الشرائع، ج2 ص402 ح2.
125) الكافي، ج1 ص465 ح6.
126) الأمالي (للصدوق)، ص130 ح5.
127) الجنّ: 4.

وأتته أفواج من مؤمني الجنّ، فقالوا له: يا مولانا، نحن شيعتك وأنصارك، فمرنا بما تشاء، فلو أمرتنا بقتل كلّ عدوٍّ لك وأنت بمكانك لكفيناك ذلك، فجزاهم خيرًا وقال لهم: أما قرأتم كتاب الله المُنزَل على جدّي رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[128]، فإذا أقمت في مكاني فبما يمتحن هذا الخلق المتعوس، وبما ذا يختبرون، ومن ذا يكون ساكن حفرتي وقد اختارها الله تعالى يوم دحى الأرض وجعلها معقلًا لشيعتنا ومحبينا، تقبل أعمالهم وصلواتهم، ويجاب دعاؤهم، وتسكن شيعتنا فتكون لهم أمانًا في الدنيا وفي الآخرة»[129].

كأنّه عليه السلام أراد إبعادهم من دون أن يذكر لهم السبب الحقيقي المتعلّق بهم، فاستند إلى موضوع القضاء والقدر! هذا ما نلاحظه في كثير من كلمات شهيد الطفّ سواء بين الطريق أو في كربلاء. هذا والإمام السجّاد يقول في خطبتة: «أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء، أنا ابن من ناحت عليه الجنّ في الأرض، والطير في الهواء»[130].

أعظم حماس بالإطلاق

بما أنّ الأنبياء بأجسادهم قبل الواقعة، وأيضًا بأرواحهم حين الواقعة وبعدها، قد حضروا لزيارة كربلاء المقدّسة، فهناك مهامٌّ مشتركة بينهم، وأيضًا كلّ نبيّ له مهمّة تختصّ به حسب التكليف الإلهي، فآدم عليه السلام بالتأكيد تختلف نظرته في كربلاء عن النبيّ نوح عليه السلام؛ لأنّ آدم قد تخلّص من معضلة عظيمة ببركة اسم الإمام الحسين عليه السلام حينما نطق به وقال: «يا قديم الإحسان بحقّ الحسين»، وهكذا كلٌّ من الأنبياء والرسل حسب ارتباطهم به عليه السلام.

ومن ناحية أخرى، جميع الملائكة تريد أن تتعرّف على فلسفة خلق الإنسان، وكانت تنتظر الجواب الميداني من الله سبحانه؛ حيث قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وكانت تترصّد الحوادث وتتخلّل صفوف الأنبياء كي تعثر على الجواب المناسب للغز الخلق به تتخلّص من الانتظار الصعب! ولكن لم تعثر على جواب يشفي الغليل؛ حيث شاهدت الأمم الظالمة الّتي كانت تحارب الرسل وتقتلهم، وبالنتيجة يأتيهم العذاب الإلهي فيهلكهم، كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود.

128) آل عمران: 154.
129) اللهوف، ص66 - 68.
130) مناقب آل أبي طالب، ج4 ص168.

لم تخرج تلك الحوادث جملة وتفصيلًا – رغم تراكمها – من ذاكرة الملائكة، ولكن رغم ذلك بقيت حادثة واحدة من بين الحوادث تحتلّ الصدر وهي ما تختصّ بالنبيّ داوودعليه السلام، ﴿...قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ...﴾[131]، فهنا لم يخرج جنوده من هذا الابتلاء سالمين، بل منكسي الرؤوس؛ لأنّهم شربوا أكثر من غرفة، ربّما كانت بالفعل مهمّةٌ قد كلّف بها طالوت وهو قائد جيش داوود الملِكعليه السلام، لها علاقة بالمستقبل حيث يتحقّق هذا الابتلاء في صورته الأصعب بنهر الفرات.

هذا، فلنذهب إلى كربلاء في ليلة عاشوراء ونركّز على ما حدث هناك، لا شكّ أنّه لم يطلق على العباس «أبو الفضل» إلّا لأنّه يمتلك أعلى الفضائل الربّانيّة، الّتي من أهمّها ما وصفه بها الإمام السجّادعليه السلام حيث قال: «كان عمّنا العبّاس بن عليّعليه السلام نافذ البصيرة، صلب الإيمان»[132]، ولذلك كان هو بوّاب الإمام الحسينعليه السلام، يستقبل ببصره الأشخاص القادمين لنصرة الإمام كحبيب بن مظاهر والحرّ وغيرهما، ويرحّب بأرواح الصالحين ببصيرته النافذة.

وبما أنّ الرسل هم أصحاب الفضائل – ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[133]– كانوا يشاهدون أبا الفضل بعين برزخيّة وهم معجبون به، وهوعليه السلام يستقبل الضيوفَ نيابة عن المَلِك، أعني: الإمام الحسينعليه السلام. فلنتصوّر أبا الفضل وهو يستقبل مائة وأربعة عشر ألف نبيٍّ – بما فيهم الرسل – مضافًا إلى نفس العدد من أوصياء الأنبياء، والمحسنين والصالحين والشهداء، وكذلك من هم كانوا في عالم الأرواح ولم يولدوا بعدُ، فيا له من جمع غفير اجتمع في عرصة كربلاء!

كلّهم توجّهوا نحو الفرات ليشاهدوا الصورة الجميلة للإنسان الكامل الّذي يباهي به الله سبحانه، فالعبّاس بما هو تربية المدرسة الحسينيّة قد وصل إلى ذروة الكمال وأدرك منتهى الرفعة، فهو أعظم بطل بعد الإمام الحسينعليه السلام، وكأنّي به يرتجز ويقول: إنّي أنا العبّاس أغدو بالسِّقا[134] ليُسمع هذا الجمع فيعرفوه أنّه ساقي العطاشا وصاحب الراية وحامي الحرم النبويّ.

فكلّ بيت من تلك الأبيات تشير إلى صفاته وكمالاته ومواقفه العظيمة.

131) البقرة: 249.
132) عمدة الطالب (لابن عنبة)، ص327.
133) البقرة: 253.
134) مناقب آل أبي طالب، ج4 ص108.

شفتا العبّاس جافّتان كالخشبة، وقد اقتحم الفرات بفرسه المطهم، فهل سيشرب الماء أم لا؟ هذا هو النقاش الدائر بين هذا الجمع من الملائكة والأرواح! فإذا به قد اختفى عن ناظرهم، فهو بعد قتال عنيف قد سيطر على الفرات! لا يتواجد أحد حواليه أبدًا وبقي هو وفرسُه وقربتُه، يا لها من عظمة! ويا له من مواساة لا يُصدّق! إنّه لم يشرب، إنّه ذكر عطش الحسين عليه السلام، «السلام عليك أيّها العطشان».

وكأنّي به يُنادى من أعلى السماء بصوت حزين في غاية العطوفة والحنان: أشكرك يا بُنيَّ، أنت ساقي أطفال فلذة كبدي ونور عيني الحسين، وكأنّي به رفع رأسه جهة ذلك الصوت فإذا بسيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام تشكره، لِمَ لا؟ وقد حقّق إنجازًا عظيمًا لا مثيل له.

هنا انحلّ اللغز، وتفكّكت العقدة، وظهر السرّ في خلق الإنسان، وعرف الملائكة معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وعلى ضوئه تعرف السرّ فيما ورد في بداية زيارته الخاصّة الّتي نقلها أبو حمزة الثمالي، عن الصادق عليه السلام: «سلام الله وسلام ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين وعباده الصالحين وجميع الشهداء والصدّيقين والزاكيات الطيّبات – فيما تغتدي وتروح – عليك يا ابن أمير المؤمنين»[135].

كما أنّك تعرف مدى أهمّيّة كلام الإمام زين العابدين عليه السلام: «إنّ للعبّاس عند الله – تبارك وتعالى – لمنزلةً يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة»[136].

الدعوة إلى الخير

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[137].

هي أربعة خصال رئيسة في دولة الإمام المهدي – عجّل الله فرجه – بعد أن تستقرّ الأمور، كما هو مستفاد من ظاهر الآية المباركة، يعزّزها رواية زيد بن عليّ عليه السلام: إذا قام القائم من آل محمد عليه السلام يقول: «يا أيّها الناس، نحن الّذين وعدكم الله في كتابه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية»[138]. وكلّ واحدة من هذه الأعمال لها دور رئيس في تعالي المجتمع المهدوي إلى القرب الإلهي والكمال المطلوب.

135) كامل الزيارات، ص256.
136) الخصال، ج1 ص68 ح101.
137) الحجّ: 41.
138) شواهد التنزيل، ج1 ص523 ح556.

فالصلاة من أجل الشكر لتتزايد النعم الفرديّة والاجتماعيّة وحتّى للحصول على الرزق الإلهي من الأكل والشرب، ولذلك قال جلّ وعلا: ﴿ ... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾١٣٩.

والزكاة هي البركة والطهارة والنماء والصلاح: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾١٤٠، ففي الدولة المباركة يتبادل المؤمنون الصفات الحسنة فيرتقوا إلى أن يصلوا إلى الجنّة ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾١٤١.

والأمر بالمعروف ليس هو بالقول بل بالفعل، بحيث أنّ المؤمن بفعله الحسن وشوقه إلى الخيرات والمستحبّات يدعو إلى الخير، ومن ثمّ يتحقّق الأمر بالمعروف. وكذلك النهي عن المنكر، وهو عدم الميول إلى الذنوب بل وحتّى المكروهات، وبذلك تتحقّق مصداقيّة قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾١٤٢.

هذه الصفات نشاهدها في طريق كربلاء رأي العين، نشاهد تبادل الخير والصفات بين المؤمنين، والدعوة إلى الله بالعمل لا اللسان، وتشجيع الناس إلى المعروف، وإبعادهم عن المنكر، وبذلك يرتقي كلّ من هو في هذا الطريق شاء أم أبى، ويتعالى إلى السماء وينتشر «الوُدُّ» بين المؤمنين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾١٤٣، الوُدُّ الّذي ينبع من قربى الرسول عليه السلام: ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾١٤٤، يا ترى لولا الأربعين هل كان هناك مصداق للآيتين؟

أيّها العزيز: فلا تترك المشي إلى حرم سيّد الشهداء؛ فإنّ تركه خسارة لا يمكن أن تجبر.

139) آل عمران: 37.
140) التوبة: 103.
141) الواقعة: 89.
142) آل عمران: 104.
143) مريم: 96.
144) الشورى: 23.

الرجل كلّ الرجل

كم فرق بين المرضعة الحاضنة وبين الأمّ الحنون، فهي ترضع الطفل من أجل الحصول على شيء من المال، ولكن الأمّ رضاعتها تختلف تمامًا، هي تعشق ولدها فترضعه حبًّا له، ومن المستحيل أن يصدر منها شيء يتنافى مع مصلحة الطفل، فالأمّ تصرّفاتها تنبع من القلب الّذي هو مليء بالعشق، وهذا النمط من الأفعال هي ذات أصول وجذور، وكما هو مصطلح في زماننا «ماركة» تكون جميلة حقيقة لا تُقيّم بالقيم الدنيويّة أبدًا، بخلاف تلك فهي تجارية بما للكلمة من معنى «غير مسجّلة» لا أصالة لها ولا هويّة.

كيف يمكن تمييز الأصيل من غير الأصيل في الأفعال الملكوتيّة المعنويّة؟

الأصيل: هو الّذي ينادي بأعلى صوته: «أنا أصيل» من خلال الآثار الناتجة والنتائج الحاصلة.

هذا الأمر جارٍ في تقييم الأعمال العباديّة، فكمال الإخلاص يعني أن ينبع العمل من منطلق الحبّ لا غير، وهذا ما يسمّى بعبادة الأحرار، فقلب الحرّ غير متعلّق بشيء سوى الله تعالى، وهو في أتمّ الاستعداد لتضحية نفسه وماله في سبيل المعشوق.

جاء في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «وبذل مُهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة»[145]، وصفة عاشق الإمام الحسين عليه السلام هو ما ذكره سيّد الشهداء: «من كان باذلًا فينا مُهجتَه، ومُوطّنًا على لقاء الله نفسَه، فليرحل معنا»[146].

هنا لا قيمة لأعزّ الأشياء في قبال المعشوق؛ «بأبي أنت وأمّي وأهلي وولدي يا ابن رسول الله»، وأثر ذلك هو أنّ العاشق ينطلق إلى زيارة المعشوق راجلًا انطلاقًا جنونيًا، وكأنّ الاختيار قد سُلب منه وهو في قمّة الوعي، يتألّم ولا يحسّ بالألم – لا في بداية الطريق، ولا في نهايته – بل ذلك يزيد في عزمه وحماسه فيعيش في السنة المقبلة من أجل الأربعين!

فحقيق لأن يطلق على هذا الإنسان: «الرجل كلّ الرجل»، في قبال المكبّ على وجهه! قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[147]، فتأمّل ولا تغفل.

145) مصباح المتهجّد، ج2 ص788.
146) اللهوف، ص61.
147) الملك: 22.

تبادل الخجل

موقف لا مثيل له أبدًا في الكون متبادل بين الله تعالى وبين ملائكته ورسله والصالحين وبين الإمام الحسين عليه السلام وأخيه أبي الفضل العبّاس.

أمّا الملائكة فهي خجلة من أصحاب سيّد الشهداء عليه السلام – وخاصّة أبي الفضل العبّاس عليه السلام – الّذين بذلوا كلّ ما لديهم في سبيل نصرة سيّدهم المظلوم، وسبب الخجل هو أنّهم حيث خلق آدم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، كانوا من ذلك يقصدون غير المعصومينَ، والآن عرفوا أنّهم أخطأوا في مقالتهم هذه، فوجود هؤلاء الأصحاب مبرّر قويّ لفلسفة خلق الإنسان.

وأمّا الأنبياءُ فسبب خجلهم هو أنّهم لم يوفّقوا لتربية مثل هؤلاء الأصحاب ليحتجّوا بهم على الملائكة فينتصروا للحقّ تعالى، ويكشفوا الستار عن قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[148]، فيتّضح أمر الخلق للملائكة.

ومن أجل ذلك هم يزورون الحسين وأصحابه – خاصّة أبا الفضل العبّاس – غداء ورواحًا كما في الزيارة: «سلام الله وسلام ملائكته المقرّبين وأنبيائه المرسلين وعباده الصالحين وجميع الشهداء والصدّيقين والزاكيات الطيّبات – فيما تغتدي وتروح – عليك يا ابن أمير المؤمنين»[149].

وأمّا العبّاس بن عليّ عليه السلام فهو خجل من أخيه الإمام الحسين عليه السلام، وسبب هذا الخجل طبيعيّ من بطل ضرغام قاتل الفرسان، تُقطَع يداه وتصاب عينه ويستشهد ولم يُوصِل الماء إلى خيمة الحسين رغم شدّة الحرّ وعطش الأطفال!

هذا أمرّ حالة الّتي يعيشها بطل العلقمي، فكان يرى نفسه مقصّرًا في حقّ أطفال الإمام الحسين! وهذا الشعور بالتقصير تجاه سيّد الشهداء عليه السلام صفة في غاية الحُسن من العبد الصالح المطيع الناصح، وهي الّتي أوصلت العبّاس إلى مقام العليّين، فقد ورد في زيارته: «ورفع ذكرك في عليّين، وحشرك مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا»[150].

وأمّا لسان حال الإمام الحسين عليه السلام لربّه: إلهي، تركت الخلق طرًّا في هواك، وكم أنا خجول في حضرتك، وكنت أتمنّى أن أضحّي أكثر وأكثر في سبيلك.

هذا، وهاهنا يتجلّى دور الزائر الواله بوضوح، وهو المواساة لفلذة كبد أمّ البنين وفاطمة الزهراء عليها السلام.

148) البقرة: 30.
149) كامل الزيارات، ص256.
150) كامل الزيارات، ص257.

فيا عزيزي: عليك أن تُدرك أسرار الزيارة وتنطلق نحو غاياتها لتكون مقبولة تحلّق بروحك نحو المليك المقتدر، وعليك أن تتعرّف على مسؤوليّتك تجاه أبي الفضل العبّاس عليه السلام وأنت تقصد ضريحه المقدّس، فإنّك مدعوّ لمواساته من خلال هذه الزيارة المأثورة فتشهد له بأنّه بالفعل لم يكن ينظر إلى نفسه طرفة عين، بل جلّ سعيه كان من أجل إمامه المظلوم، فتقول:

أشهد أنّك قد بالغت في النصيحة، وأعطيت غاية المجهود، فجزاك الله أفضل الجزاء وأكثر الجزاء وأوفر الجزاء. وأيضًا تذكره بأنّه سعى لإيصال الماء، ولم يتهاون في الأمر ولم يمتنع: أشهد أنّك لم تهن ولم تنكل، ولكنّ القوم جميعًا أحاطوا بالفرات، ولعن الله من حال بينك وبين ماء الفرات.

المنصور على من اعتدى عليه

لا شكّ أنّ الحادثة العظيمة المليونيّة في أرض العراق – قبل العشرين من صفر – ليست مجرّد أمرٍ أراده الناس فتحقّق! بل ورائها يدٌ غيبيّة تقول للشيء: كن فيكون.

ولكن يا ترى لماذا حدثت في هذا الزمن بالتحديد؟ وأيّ إنسان إلهيٍّ يُسيّرها ويديرها بهذه الدقّة والحكمة والحذاقة والجمال.

لا شكّ بأنّها تنطلق من أحد المعصومين، فمن هو ذاك؟ هل الإمام الحسين عليه السلام، أم الإمام الحجّة عليه السلام، أم غيرهما؟

أقول: بما أنّ للأربعين نورًا قد شرع في الانتشار والتوسّع وهو مستمرّ في ذلك، فهو إذن ليس بنور أئمّة أهل البيت المُشرق دائمًا وأبدًا – «وأشرقت الأرض بنوركم»[151] – بل هو نور ملكوتيّ ما وراء الستار يشعّ على المؤمنين في أيّام وليال محدّدة من أهمّها ليلة القدر، ولكن هذه المرّة قد أسفر هذا النور الأبلج في أيّام معدودة تتزايد في كلّ عام، أصلها تتوقّد في يوم الأربعين، وفرعها تنتشر قبل وبعد الأربعين، وأيضًا في أراضي محدّدة تتوسّع كلّ عام، مركزها كربلاء المقدّسة، وفروعها بعض بلاد الإسلام كالشرق الأوسط، وهي بسرعة النور في حال التوسعة والشموليّة والانتشار لتصل إلى أقصى بلاد الكفر كأمريكا والصين وروسيا! وستشاهد قريبًا جميع العالم قد انقلب إلى كربلاء، «كلّ أرض كربلاء».

151) من لا يحضره الفقيه، ج2 ص616.

إنّه نور الصدّيقة الطاهرة الحوراء الإنسيّة المنصورة في السماء وفي الأرض «فاطمة الزهراء»، فهي الكوكب الدرّيّ!

ولكن لو أردنا أن ندقّق النظر إلى هذا النور اللطيف – الّذي هو رَوح وريحان وجنّة نعيم – وأن نتعرّف على معدنه لوصلنا إلى أنّه ينتبع من اسم «المنصورة»، وذلك من أجل ظهور ابنها «المنصور» مهديّ آل محمّد عجّل الله فرجه، فهو وليّ دم جدّه سيّد الشهداء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[152].

ففي تفسير البرهان – نقلًا عن كامل الزيارات، وعيون أخبار الرضا، وتفسير القمّي – أحاديث مفصّلة عن الباقر والصادق والرضا تؤكّد ذلك، نشير إلى بعض المقاطع منها:

فعن أبي جعفر في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ الآية، قال: «نزلت في قتل الحسين»[153].

وعن الصادق قال: «ذلك قائم آل محمّد، يخرج فيقتل بدم الحسين، فلو قتل أهل الأرض لم يكن مسرفًا»[154].

وعن الرضا: «وإنّما يقتلهم القائم إذا خرج؛ لرضاهم بفعل آبائهم»[155].

العبد / إبراهيم الأنصاري البحراني

152) الإسراء: 33.
153) البرهان في تفسير القرآن، ج3 ص528 ح6355.
154) البرهان في تفسير القرآن، ج3 ص528 ح6353.
155) البرهان في تفسير القرآن، ج3 ص528 ح6354.

الفهرس

مقدّمة المؤلّف ١
جنّة الحسين عليه السلام ٢
كربلاء ساحة العشق ٤
ماذا تفتقد؟ ٤
مدرارًا ٥
اللطم على الصدر ٦
استجابة الدعاء تحت قبّته ٧
الرشد الحسيني ٨
العبد الآبق ١١
الارتقاء بالطهارة ١٢
كِد كيدك ١٤
جمال الشهادة ١٥
الثوب الممزّق ١٦
أجمل لوحة ١٧
زينب الواسطة بين الحسين والمهدي عليهما السلام ١٨
تجلّي أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة ١٩
نظام العشق ٢٠
عاشوراء بعين الله جلّ جلاله ٢١
تلوّن العاشق بلون المعشوق ٢٢
ظهور آية الرجوع إلى الربّ ٢٣
الرؤية الثاقبة والبصيرة النافذة ٢٤
كاشف الكرب ٢٦
فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا ٢٧
غيرة الله ٢٨
فُبهت الّذي كفر ٢٨
فراق الإمام فراق الله ٢٩
ضرورة الإصلاح ٣١
اقتراح بناء ٣٢
أتمّ القصص ٣٢
خرق الحجب ٣٣
الشريعة والمنهاج ٣٤
الذنوب العظام ٣٦
باذلًا مهجته ٣٧
أبعاد الواقعة ٣٨
ضجّت الملائكة ٤٠
أعظم حماس بالإطلاق ٤٢
الدعوة إلى الخير ٤٤
الرجل كل الرجل ٤٦
تبادل الخجل ٤٧
المنصور على من اعتدى عليه ٤٨